331

HARLEQUIN

روايات أحلام

دون قيد أو شرط

ديانا هاميلتون

www.elromancia.com
مرمورية

دون قيد أو شرط

كان سيزار أندريوتي رجلاً إيطالياً غنياً ذا نفوذ وقوة وجاذبية، ودوماً يحصل على ما يريد... إلا بيانكا الرائعة الجمال!

حتى هو الخبير بالنساء يعترف أنه ما زال لا يعرفها ... لا يعرف ماذا يكمن خلف هاتين العينين الكهرمانيتين المنوّمتين ... لقد أثارت فضوله إلى حد وجد نفسه يعرض عليها الزواج، وإذا بها تطلب بالمقابل إنهاء علاقة الصداقة بينهما!

لماذا؟ هل لأنه أسأمها؟ وصمم سيزار على التعامل معها بشكل مختلف، فهو الذي يقرر متى ينهي العلاقة وليس هي ... ولن يكون اسمه سيزار أندريوتي إذا لم يجعلها تخضع!

ديانا هاملتون

إنها فتاة رومنسية جداً والدليل على ذلك أنها وقعت في حب زوجها من النظرة الأولى. إنهما يعيشان حتى الآن في بيت أشبه بقصور الحكايات الخرافية، وفي هذا المنزل تربى أولادهما الثلاثة. تتقاسم العائلة منزلها الآن مع ثماني قطط أنقذوها من الشارع وجرو صغير. وعلى الرغم من هذه الحياة الصاخبة داخل المنزل، لا تستطيعُ ديانا أن تذكر وقتاً لم تكن فيه ممسكة بكتاب، إما تقرأه أو تكتبه، وهذا ما تنوي أن تفعله لوقت طويل بعد.

١ ـ انتهى كل شيء!

ـ هل سمعتم آخر الأخبار؟ هنري كروفت طلق زوجته الثالثة وسيتزوج الآن من الرابعة!

عبر مائدة العشاء المضاءة بالشموع، تألقت عينا كلوديا نيل السوداوين بما لا يمكن لبيانكا جي أن تصفه إلا بالخبث. تملكتها رعشة باردة وهي تنظر إلى أخت سيزار الصغرى. مع أن هذه الأخيرة حاولت التظاهر بالعطف إلا أن الاستمتاع المثير للغيظ بدا واضحاً في لهجتها: «لقد تحطمت أماندا تماماً، فالمسكينة تشعر بالقلق منذ حفلة جوائز الأوسكار. فهنري بدا مهتماً بتلك الممثلة المتألقة منذ التقطت لهما صورة معاً. غاب اسم تلك الممثلة عن ذهني حالياً. أنت تعرفينها بيانكا، إنها ذات شعر أشقر كث يصل إلى خصرها وهي تغني مع فرقة شعبية. ولكن انتبهي، فأماندا ستحصل على نفقة جيدة...»

هزت كلوديا كتفيها بفتور فبدتا ناعمتين حريريتين تحت ثوبها الأسود القصير: «النفقة مهما كانت كبيرة لا تعوض عن حقيقة أنه رماها من أجل فتاة أصغر سناً وأكثر تألقاً منها، أليس كذلك؟ ولكن ماذا كانت أماندا المسكينة تتوقع؟: تزوجي رجلاً بالغ الثراء ذا عينين زائغتين

www.elromancia.com

ويسعى خلف النساء وستكونين محظوظة إذا بقيت معه أكثر من سنتين!»

هل تتوقع منها كلوديا أن تجيب عن كلامها هذا؟ طرحت بيانكا هذا السؤال على نفسها وهي تحاول أن تتجاهل شعورها بالغثيان. تمنت للمرة المئة لو أن موقفها لم يضعف فتقبل بالمجيء إلى هنا. لكن سيزار أقنعها بالحضور قائلاً: «أنا آسف. كنت أفضّل أن نتعشى وحدنا، خاصة أنها أول ليلة لي بعد عودتي إلى لندن، لكنه عيد ميلاد أختي الصغرى وكنت قد وعدتها بإقامة حفل عشاء لها في شقتي. لن يكون هناك سوانا نحن الأربعة... أنت وأنا وكلوديا وألين. وهما لن يتأخرا، فلا أظن أن جليسة الأطفال ستبقى إلى ما بعد الساعة التاسعة. فهي لن تجهد نفسها في وضع ذينك الغولين في الفراش، وبعد ذلك لن يبقى سوانا نحن الإثنان».

إنها تفكر في هذا الخطر منذ بداية السهرة، فهذا الموضوع شغل ذهنها طوال الأسابيع القليلة الماضية. هل تخبره أن علاقتهما التي دامت ستة أشهر يجب أن تنتهي لأنها لا تستطيع أن تلبي له رغباته؟ فالاستسلام له سيسبب لها أذى بالغاً!

تعرف جيداً أنه يريدها بشدة ولكن ماذا سيحصل بعد أن يحقق مبتغاه؟ سيملّ منها حتماً وسيتركها كما ترك كثيرات غيرها...

- طبعاً...

قالت كلوديا مبتسمة لزوجها الشغوف وهي تغمس الملعقة في حلوى الفريز، بينما راحت يدها الأخرى تعبث بالقلادة المعلّقة بسلسلة في عنقها، إنها هدية سيزار لها في عيد ميلادها: «ألين ليس من الثراء بحيث يستطيع استبدالي بزوجة أخرى ودفع نفقة في الوقت ذاته وبهذا أظنني آمنة بشكل لا بأس به».

وأطلقت ضحكة موسيقية مصطنعة، فيما كانت عيناها تتأملان وجه بيانكا الذي شحب فجأة: «على الأقل أنت وسيزار تعلمان ما هو وضعكما، أليس كذلك يا عزيزتي؟ فليس عندكما هذا الهم والغم».

- الهم والغم؟

رفع ألين حاجبيه الأشقرين بغضب مصطنع. فأدارت كلوديا عينيها نحوه: «آه، أنت تعلم، يا عزيزي... همّ الشجار من أجل نفقات ملابسي، همّ التعامل مع التوأمين وصراخهما، وهمّ إيجاد جليسة الأطفال...»

لكن بيانكا لم تكن تصغي، فما قالته كلوديا إشارة مباشرة إلى وضعها كصديقة سيزار التي يخرج برفقتها ولا ينوي الزواج بها.

ولم يكن هذا وضعاً تفخر به. صديقة رجل ثري يجول بها متباهياً في الأماكن المناسبة، ويقدمها ببساطة إلى أصدقائه الرفيعي المستوى. لكن حتام سيبقى على علاقة بها ما دامت لا تحقق له مبتغاه؟

تعرفت بيانكا إلى سيزار أندريوتي من خلال عملها في العلاقات العامة. كانت يومها تنظم حفلة راقصة بمناسبة افتتاح آخر فندق في سلسلة فنادق فخمة، ومجمعات للهو والاجتماعات تملكها أسرته المعروفة «أندربوتي».

منذ ذلك الحين وهما يخرجان معاً لكنها تعرف أنه رجل لا يمكن أن يرتبط.

كانت تعلم أن هذا ليس ما تريده، لكنها سيدة أعمال مستقلة ولا وقت لديها للعلاقات الشخصية. الزوج والأسرة لا يتناسبان مع ساعات العمل الطويلة فالتزاماتها غالباً ما تستنزف مشاعرها. وكم من مرّة حدثت نفسها بأن سيزار أندريوتي هو من صنف الرجال الذين تحتقرهم! مرات لا تحصى.

ثراء وحب مال ووسامة مدمّرة، وسحر إيطالي نافذ ولمسة من الفطرسة ترسل الرعشة في كيان كل أنثى قريبة منه. إنه من ذلك النوع من الرجال الذين يملكون كل شيء حتى النساء. فهؤلاء يبدّلون النساء كما يبدّلون ثيابهم، ويغرقونهن بالهدايا ما يشعرهم بالحق في هجرهن متى شاؤوا. لكنها ليست واحدة من أولئك وهو يعرف ذلك.

حاولت أن تبعده عنها، أو على الأقل هذا ما ظنت أنها تقوم به. لكن وبعد شهر من تعارفهما، راح قلبها يتخذ مساراً آخر ولم تستطع أن تمنعه من التعلق به أكثر فأكثر.

وعرف سيزار كيف يتغلب على اعتراضاتها كلها. بانت تخشى الآن من مشاعرها التي قد تجعلها تخضع له.

كانت عيناه تتفحصانها... فشعرت بحرارة نظراته على وجهها، واقشعر جلدها. فهو لم يتوقف عن مراقبتها منذ أدلت أخته بذلك التعليق عن أن علاقتهما مؤقتة فقط.

رفضت أن تلتفت إليه، وأن تنظر إلى عينيه الرائعتين.. إلى العينين الرماديتين المتقلبتي المزاج. رفضت أن تدع نظراتها تتمهل على قسمات وجهه الوسيم أو تلتهم تفاصيل جسمه الفولاذي وهو يجلس متكاسلاً بأناقته البالغة.

فذلك يعني ضياعها! ففي كل مرة تعقد فيها العزم على إنهاء علاقتهما تعود فتتراجع، ما إن تنظر إلى عينيه الساحرتين ضاربة بقرارها عرض الحائط.

- هل يمكنني أن أطلب منك خدمة، يا سيدي؟

طرح ألين هذا السؤال ثم احمر خجلاً وهو يصحح قوله: «يا سيزار؟»

كان ألين نيل رئيس قسم المحاسبة في فرع من فروع تلك

الامبراطورية المالية الضخمة.

وقد وقع في غرام كلوديا أندريوتي عندما كانت تزور سيزار في شقته اللندنية، كما هفا قلب كلوديا إليه منذ تلك اللحظة لكنه لم يتعود حتى الآن على حقيقة أن رئيسه أصبح شقيق زوجته.

عندما كان سيزار في الرابعة والثلاثين من عمره استلم رئاسة شركة أندريوتي عن أبيه الذي استقال منذ أربع سنوات. وغُرست مهابة سيزار في عقل وقلب كل من عرفه. إن سيزار أعلى مقاماً ومستوى من ألين لكن هذا الأخير سهل المعشر، وهو أكثر وفاء من أن يغدر بزوجته الجميلة المتقلبة المزاج، لذا فكلوديا آمنة جداً وليس عليها أن تخشى أن يتركها زوجها.

عندما أشارت إليه زوجته بحاجبها الأسود المرهف، أضاف ألين متلعثماً: «هل يمكننا أن نستعمل طائرة الشركة في أوائل آب؟ أكره أن أطلب ذلك، لكن وجود التوأم على متن الطائرة التجارية سيكون كابوساً مزعجاً. لن يبقيا هادئين في أي مكان، وأنت تعرف صخب وصياح من هم في الثالثة من العمر عندما يتحمسون لأمر ما».

ودس أصابعه في شعره الأشقر الكث وهو يطلق ضحكة مبتورة: «أكره فكرة إزعاج المسافرين الذين دفعوا أجراً للرحلة».

وضعت كلوديا يدها المطلية الأظافر على ذراع زوجها: «يا عزيزي... كفى تلعثماً... سيزار لن يمانع طبعاً».

وابتسمت لأخيها وهي تخفق بأهدابها الطويلة: «ماما وبابا أصرّا على أن نأخذ الولدين إليهما في «كالابريا» للاحتفال بعيد زواجهما الذي يصادف في شهر آب. وأنا واثقة تماماً من أن لديك ترتيباتك بهذا الشأن أنت أيضاً! وهكذا، فكرنا بأن نرافقك في رحلة الذهاب والعودة. ولكن إذا لم تستطع أخذنا معك...»

وزمت فمها مستاءة بشكل جميل: «عندئذ، هل يمكننا استعمال «لير» رجاءً؟».

غطت بيانكا كوبها بأصابعها الطويلة عندما هم سيزار بملئه بالعصير. كانت تنظر إلى الأمام مباشرة... وهي مستعدة للنظر إلى أي مكان إلا إليه...

أبقت على وجهها ابتسامة خفيفة تعبّر عن اهتمام مهذب لكنها لم تكن تصغي إلى كلمة من حديث الأقارب العطوف. إن كلوديا تحرك أخاها الأكبر بإصبعها الصغير منذ تعلمت المشي!.

ولكن الترتيبات المتعلقة بهذا الإجتماع العائلي لن تشملها أبداً.

لقاؤها أخته وصهره في مناسبة اجتماعية أو اثنتين، أمر لا مناص منه. ولهذا تشارك الآن في هذا الاحتفال العائلي الخاص، لكنها ليست من الأهمية بحيث ترافقه لزيارة والديه.

لم تتعرف إلى طفلي أخت سيزار اللذين كانوا يتحدثون عنهما كثيراً. في بداية تعارفهما، أشار بشكل ما إلى أن علاقته بأي امرأة لا تدوم طويلاً: ولماذا أتركها تدوم؟ ولماذا أتزوج؟ لقد أدّت أختي واجبها وأنجبت للأسرة توأم.

كانت أصابعه الطويلة مسترخية على حافة الطاولة، وقد ارتسمت على فمه ابتسامته الخفيفة التي لطالما أسرتها بينما عيناه تتأملان وجهها: «ترتيبنا هذا جيد ولكنه غير كامل...»

كان صادقاً على الأقل، كما أخذت تفكر متعبة وهي تنظر إلى نادل شركة متعهدي الأطعمة التي يتعامل معها سيزار دوماً عندما يقيم احتفالاً في شقته. وكان النادل متوجهاً نحوهم بصينية القهوة. لقد أصبحت تعرف رجالاً كثيرين بثراء سيزار ومركزه يتزوجون ويطلقون برتابة مملة.

كان ذلك الحديث قد جرى بينهما في مطلع تعارفهما، كما أخذت تذكّر نفسها بينما النادل يضع أمامها فنجان القهوة. لكن الأشياء تتغير، فقد ابتدأ سيزار يطالب بأشياء لن توافق على منحه إياها.

وقد حان الوقت الآن لوضع نهاية حاسمة وواضحة قبل أن يتركها بقلب محطم، فيتملّكها الألم والندم واليأس والحنين إلى شيء لن يعود أبداً! الشيء الذي لم تكن تريده منذ البداية، وعليها حتى ألا تفكر في الحصول عليه حالياً.

وضعت فوطتها على المائدة وهي تتمتم قائلة: «كان الطعام لذيذاً، ولكن عليّ أن أذهب حقاً. استمتعي ببقية عيد ميلادك يا كلوديا».

ثم وقفت وقد رسمت ابتسامة مهذبة على وجهها. كانت ترتجف في داخلها لضخامة ما ستقوم به، ولكن يجب ألاّ يعلم أحد.

تألقت عينا كلوديا وهي تقول بأسف زائف: «هل أنت مضطرة لذلك يا عزيزتي؟ حقاً؟ أكره أن أظن أننا، أنا وألين، أفسدنا عليكما سهرتكما».

ـ لا، أبداً.

أجبرت بيانكا نفسها على أن تقول ذلك بمرح، ثم التفتت إلى ألين الذي وقف مرتبكاً، وقالت: «أرجو أن تستمتعا ببقية السهرة».

وأرغمت نفسها على الخروج من غرفة الطعام الأنيقة، بخطوات رشيقة متمهّلة.

تبعها سيزار كما أدركت، فقد سمعت صوت صرير كرسيه حين نهض عن المائدة وتمتمته المنخفضة الناعمة وهو يعتذر، فالتوت معدتها في داخلها بحدة.

في غرفة الجلوس الفسيحة الملحقة بغرفة الطعام، أخرجت بيانكا هاتفها الخلوي من حقيبة يدها المسائية ثم طلبت رقم شركة سيارات

الأجرة التي تتعامل معها بأصابع مرتجفة. كانت أنفاسها تتسارع بشكل شهقات سطحية وهي تنهي المكالمة بعد أن أصبح سيزار بجانبها وهو يقول: «هل من خطب ما؟ من المفروض أن تبيتي هنا الليلة! لا تذهبي. طال شوقي إليك طوال ثلاثة أسابيع».

وضع يديه على كتفيها فشعرت بجسدها يتجمّد. كلماته البطيئة غمرتها بالشوق إليه، ما جعلها ترغب بقوة في معانقته كما تحب وتريد.

قاومت هذا الخطر الوشيك، فابتعدت عنه وهي تغالب دموعاً تهدد بالانهمار. سألها عما إذا كان هناك خطب ما! كل شيء خطأ. علاقتهما غير الجدّية الخالية البال أصبحت أعمق ومستقبلها أكثر غموضاً بالنسبة إليها على الأقل.

إن اعتمادها عليه يزداد، كما بدأت تميل إلى أن تغضب وتتألم بسهولة عندما يضطر إلى إلغاء موعد بينهما، وتفتقده حتى يملأ الألم كيانها، ولا تفكر في شيء سواه حين يكون خارج البلاد، وتبقى أذناها مصغيتين دوماً إلى رنين الهاتف ليخبرها بعودته إلى لندن.

كان حبها له يزداد... هذا هو الجواب عن سؤاله!

ولكن لا سبيل إلى أن تخبره بذلك... أبداً!

فالحب غير وارد في قاموسه أبداً. وبخطوة واحدة كان أمامها، فلفّتها رائحته العطرة، وصدّتها عن النطق بكلمات كانت تعلم أن عليها أن تقولها، فجاهدت لكي تعود وتستجمع تركيزها قدر الإمكان.

قال لها بلطف: «إبقي. أنا بحاجة إليك. إذا كان هناك مشكلة في العمل... أو أي شيء آخر، فسأساعدك».

الضغط الخفيف الذي لا مهرب منه لإصبعه تحت ذقنها أرغم عينيها على مواجهة عينيه الرصاصيتين الغامضتين المظللتين بأهداب

كثيفة سوداء فوق وجنتين عاليتين وأنف أشم شامخ.

كان من الوسامة بحيث جعل قلبها يتألم. إدعاؤه القدرة على أن يحل مشاكلها من دون جهد جعل حلقها يتوتر بما يقارب رد الفعل الهستيري. مشكلتها لم تكن تتعلق بالثراء أو المركز بل برجولته الكاملة، وحيوية شخصيته.

ـ لا أستطيع.

قالت له هذا بشفتين مرتجفتين وعيناها ما زالتا مسمرتين بعينيه.

ـ لماذا؟ ظننت أننا رتبنا كل شيء؟

أمسك ذقنها بلطف وأحنى رأسه. هل هو تمهيد لمعانقتها؟

أشاحت بوجهها غير راغبة في المجازفة، ثم أخذت نفساً معذباً. كانت ترغب طبعاً في أن تبقى، فقربه يجذبها إليه كما يجذب اللهب الفراشة، لا ينقذها سوى «الهوائي» الذي يستشعر الخطر قبل وقوعه.

دست أصابعها في حقيبة يدها المسائية الصغيرة، فيما ذهنها يكوّن الكلمات التي ستنهي بها كل شيء.

سينقبّل ما ستقوله بكلمة أو اثنتين مهذبتين آسفتين، لأن كبرياؤه ستمنعه من أن يطلب منها إعادة التفكير في قرارها هذا. وما إن تنطق بالكلمات، حتى ينتهي الأمر. ولن يكون هناك تراجع!

أخذت نفساً مهدئاً، ونصبت قامتها، ثم بللت شفتيها الجافتين بلسانها، وقالت: «انتهى كل شيء يا سيزار، ولن أراك مرة أخرى».

ها قد قالت ما تريد... هذا البيان سيجعلها تحتفظ ببعض الاحترام لنفسها، ويجنب قلبها دماراً أبدياً. كلّفها قول هذه الكلمات عزيمتها كلها فشعرت وكأنها تحطمت وألقيت أجزاؤها في جوّ أصبح فجأة مشحوناً بأكثر من تأثير أعصابها المتوترة.

تصاعد التوتر الآن منه. فتشنّج فكّه، وطرفت عيناه الغامضتان

لحظة، كما رفع رأسه الأسود الشعر مبرزاً طول قامته المديدة ما جعلها ترتجف بتجاوب غريزي.

صرف بأسنانه وبذل كل ما في وسعه للسيطرة على نفسه ولكي يمنع نفسه من أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها إلى أن تتراجع عن كلماتها.

لا يمكنها أن تتركه، فهو لن يسمح لها بذلك!

أخذ نفساً عميقاً وأغمض عينيه لحظة قبل أن يعود ويتأمل وجهها: إنها رائعة الجمال. في بشرتها الحنطية لمسة غريبة غير عادية. شعرها أسود كث، وشفتاها ممتلئتان وعيناها لوزيتان بلون الكهرمان. أما جسمها فأسمر يميل إلى الشحوب.

لم تستطع أن تخفي ارتجاف شفتيها. لكنه رأى في عينيها من العزيمة ما أنبأه بأن لا شيء سيثبّطها. لا شيء يمكن أن يغيّر قرارها!

منذ أسابيع وهو يشعر بعدم ارتياح غامض للطريقة التي تسير بها علاقتهما. رفضها الانتقال للسكن معه... نظرة الألم في عينيها وهي ترفض الهدايا التي يُفترض أن تبعث في نفسها السرور... عدم دعوتها له إلى منزلها على الإطلاق، المراوغة الرقيقة منها حين يسألها عن أسرتها، وعن نشأتها، وعن آمالها في المستقبل.

القليل الذي يعرفه عنها الآن هو نفسه ما كان يعرفه حين قابلها لأول مرة وقرّر الحصول عليها مهما طال الوقت والانتظار.

لقد عرف أنه يريدها عندما رآها لأول مرة.

بالرغم من الشائعات، لم يتخذ من الخليلات ذلك العدد الذي نُسب إليه. وعندما كان وقت الفراق يحين، ولا مناص من ذلك، كانا يفترقان من دون حسرة أو ألم من قبل أي من الطرفين ولكنها رفضت أن تكون خليلته.

فهل غموضها هذا هو الذي يجعلها مختلفة عن غيرها؟ لا يعلم. كل ما يعلمه هو أنّ مثل هذا الشعور لم يتملكه قط من قبل. لقد أفرغته من ثقته الطبيعية بالنفس واكتفائه الذاتي، لتمتلىء بدلاً من ذلك بحنين مؤلم.

رفض الرغبة التي شعر بها، الرغبة في أن يمد يديه ويضمها بحيث يغريها للاستسلام له ولو مرة واحدة فقط. وبدلاً من ذلك، دس يديه في جيبي بنطلونه الأسود، وقال مندفعاً: «تزوجيني يا بيانكا».

* * *

٢ - أقوى من الماضي

تتزوجه!

صدمها هذا العرض من سيزار فأحالها إلى حجر. رد فعلها الوحيد كان خفقان قلبها المنفعل بين أضلعها. لكن وصول دانتون، خادم بسيزار حتى الموت، ليعيدها إلى الواقع.

- وصلت سيارتك، يا آنسة جي.

خمس كلمات كانت كافية لتصفية ذهنها، وتقوية عزمها، وإخراجها من الصدمة التي شلّت حركتها. ركزت اهتمامها على ملامح دانتون البليدة، وأرغمت نفسها على الابتسام ابتسامة شاحبة وتمتمة كلمة شكر، ثم عادت فالتفتت إلى سيزار من دون أن تنظر في عينيه، ودفعت كلمة واحدة من بين شفتيها هي: «الوداع».

خرجت من الغرفة والعذاب أشبه بيد تلتف حول قلبها بشدة، وتركت خلفها الرجل الذي أحبته أكثر من المعقول، متجاهلة عرض الزواج الذي تقدّم به وكأنه غير جدير باعتبارها. تلك الإهانة كانت المسمار الأخير في نعش علاقتهما.

عندما اتجهت سيارة الأجرة نحو «هامبستيد» مع حركة السير المتأخرة، ضغطت بيانكا أناملها على أجفانها المحترقة. لن تبكي!

لا يمكنها أن تسمح لنفسها بهذا الترف. وحتى التفكير في عرض

الزواج ذاك، لا فائدة منه. فقد جعل الأمور أسوأ، أسوأ بكثير!

علاقة دائمة هي آخر ما يفكر سيزار فيه. ألم يقل لها ذلك بنفسه؟

فلماذا عرض الزواج عليها إذن؟ أرغمت نفسها على مواجهة الواقع، شاعرة بالغثيان، وهي تحاول أن تجد جواباً عن ذلك السؤال.

ربما لأنه لم يحقق مبتغاه، قرر أن الزواج هو السبيل الأوحد للحصول عليها. لكنها تعرف أنها لو استسلمت له لشعر الآن بالملل ولرغب في قطع علاقتهما.

ولهذا جاء عرض الزواج المدهش. إنه يريد الارتباط بها شرعياً حتى يحقق مبتغاه، وبعدئذ، يتعب منها فيطلقها. لقد أصبح هذا أمراً عادياً في المجتمع الراقي الذي يعيش فيه، لكنه لا يلبث أن يجرّ الدمار في أعقابه، كما تعلم هي جيداً.

انتهى الأمر، كما حدثت نفسها عندما وصلت سيارة الأجرة إلى الشارع الذي تقيم فيه. لقد فعلت الصواب وعليها الآن أن تنسى سيزار أندربوتي. أن تنسى هذا الحب ذا النهاية المفجعة.

دفعت أجرة السيارة ثم وقفت لحظة في جوّ أمسية من أمسيات شهر أيار الدافىء، تعدّ نفسها لدخول البيت.

عليها أن تضع مشاعرها المعذبة جانباً وتواجه مشكلات الحب والواجب الذي تدين به لأمها. ولولا الخالة جين، كما ذكّرت نفسها، لما استطاعت حضور حفلة عيد ميلاد كلوديا هذا المساء، وهو حدث ساعدها لكي تصمم أخيراً على إنهاء علاقتها بسيزار.

ولولا وعد خالتها بمراقبة أختها، والدة بيانكا، لكان عليها أن تطلب من رئيستها، انستازيا، أن تمدد إجازتها على الأقل حتى تحل مشاكل أمها.

تأوهت، ثم استدارت لتتأمل المنزل الذي لن يبقى ملكاً لهم مدة

طويلة.

الدرجات المؤدية إلى الباب الأبيض والحوضان الفارغان على جانبيه اللذين كان مفروضاً بها أن تزرعهما منذ أسابيع. ستائر النوافذ الأنيقة، وواجهة المنزل الجميل التي تطالب بالاحترام بينما تخفي كل شيء ما عدا الاحترام.

وكأنما لتعزيز ملاحظتها هذه، انفتح الباب ليبرز فتى ذهبي البشرة يرتدي قميصاً من دون كمين و«سروالاً قصيراً» رياضياً وراح يهبط الدرجات بسرعة يرافقه صوت أمها الحاد الذي فيه الآن نبرة احتقار: «تباً لك، ماذا تظنني؟ متلهفة؟»

وعلى العتبة، وقفت هيلين جي والدة بيانكا، الطويلة النحيلة، وهي تنتفض غضباً، وشعرها المصبوغ بعناية باللون النحاسي يتحسّر ألماً على الجمال الغابر لوجهها المزيّن بإفراط.

تجاهلت بيانكا الفتى الذي غادر المنزل، وصعدت الدرجات وقد انقبض قلبها. رغبت في الاستسلام للبكاء. أرادت أن تبكي على ما تخلت عنه الليلة وما ستواجهه في المستقبل القريب.

لكن إطلاق العنان لمشاعرها أمر مستحيل، ففي معظم سنوات حياتها البالغة خمسة وعشرين عاماً، كان عليها أن تكون الطرف الأقوى في علاقة البنت بأمها. أمها الآن بحاجة إلى كل ما يمكنها أن تقدمه لها من عون.

منذ أسبوعين أجري لأمها غسيل معدة، بعد جرعة مفرطة من الحبوب المنومة ومقدار كبير من الكحول.

- إنها كأس صغيرة فقط وكنت قد نسيت أنني ابتلعت حبوب المنوم... ذلك غباء بالغ مني يا عزيزتي.

كان هذا العذر الذي قدمته بوهن. لكن بيانكا لم تكن واثقة تماماً

من هذا الكلام. فأمها التي تكاد تبلغ الخمسين، من دون رجل ثابت في حياتها، والتي بدأ جمالها يذوي بسرعة بعد أن كان رائعاً ذات يوم، ضعيفة وواهنة بشكل محزن. مزاجها المتقلب دوماً، كان يزداد سوءً يوماً بعد يوم، وقد يحدث أي شيء.

أمسكت بيانكا بذراع أمها فأجفلت في داخلها للنحول البالغ التي شعرت به تحت أصابعها. أدارتها برفق نحو الردهة حيث دخلت معها وأغلقت الباب خلفها.

- لا، لا يا أمي.

قالت هذا تحذرها بصوت يفيض عطفاً حين انفجرت أمها بعاصفة من الشهقات المتتابعة التي أخذت تهز جسدها. لم تستطع أن ترى أمها بهذا الشكل، فقد أصبحت الماسكارا الثقيلة السوداء لطخاً حول عينيها، وحمرة الشفاه استحالت خطوطاً دقيقة حول فمها.

قالت نائحة: «تلك الحشرة من الذين تستأجرهم النساء للمرافقة! لم أكن أعرف هذا! وكيف أعرف؟ وها هو الآن يطالب بأن أدفع له أجر صحبته لي!»

- إنه إما غبي تماماً وإما أعمى.

بذلت بيانكا جهدها لكي تحفظ كرامة أمها المحطمة. أخرجت من حقيبتها منديلاً ورقياً لتمسح بأصابع مرتجفة، دموع أمها المختلطة بالماسكارا، متمتمة بما أملت أن يكون مزيجاً متوازناً من الهزل والاهتمام: «ظننت أن جين معك هذه الليلة لتسهرا أمام التلفزيون».

رفعت هيلين رأسها وقد نسيت مؤقتاً مذلتها: «ذلك البرنامج الذي قلت عنه إنه رائع، كان مملاً للغاية، ولم يكن لدى جين ما تقوله... فالحديث عن حياكة الصوف ووصفات الطهي هو كل ما لديها... ثم لا أريدك أن تعامليني كطفلة يا عزيزتي. أنا أعلم أن نيتك طيبة، ولكن

هذا يمكن أن يكون مزعجاً! كنت بحاجة إلى شراب، فخرجت لأشتري بعضاً منه، بما أن هذا البيت أصبح مكاناً يحظر فيه الشراب».

وهكذا التقت فتى يؤجر نفسه للنساء، كما أخذت بيانكا تفكر بيأس.

منذ سنوات، لم يكن ينقص أمها الأصدقاء الحريصون على إرضائها، ولكن مع مرور الأيام ساءت الأمور وأصبح إنفاقها على الأزياء أقل حذراً، واعتيادها الشراب أكثر ضرراً.

هذه الحادثة مع الفتى الأشقر الذي طالب بأجر لقاء خدماته، يمكن أن تكون الدفعة الأخيرة التي قد ترمي بهذه المرأة الذاوية، والتي كانت يوماً ما أسطورية الجمال، إلى الهاوية.

ثم أين جين؟

وكأنما رداً على سؤال بيانكا الذي لم تنطق به، هبطت امرأة كبيرة في السن قوية البنية الدرجات وهي تربط حزام عباءتها حول ما يفترض أن يكون خصرها.

- سمعت صراخاً عنيفاً، فجئت مسرعة قدر الإمكان.

وترجمت بيانكا كلام خالتها بأنها أسرعت بعد أن وضعت طقم أسنانها، ونزعت من شعرها «لفافات» تجعيد شعرها. فالمظهر المحترم هو أهم شيء بالنسبة إلى جين: «سمعت صوت رجل يشتمك... وأنت تصرخين غاضبة».

قست عيناها الزرقاوان الناعمتان وهي ترى الدمار على وجه أختها الصغرى: «أخبرتني يا هيلين أنك متعبة وتريدين أن تنامي باكراً. وهكذا ذهبت أنا أيضاً لأنام باكراً».

وتأوهت طويلاً ثم تابعت: «لقد خدعتني. لم أقطع كل هذا الطريق الطويل لكي تخدعيني».

* * *

ودع سيزار أخته وزوجها، متلهفاً إلى إنهاء السهرة التي مرّت ببطء بالغ منذ رحيل بيانكا وأخفى أمره خلف ابتسامة لطيفة لم تصل إلى عينيه.

كان متعهدو الطعام قد رحلوا منذ نصف ساعة، ودانتون يقوم ببعض التنظيفات غير الضرورية في المطبخ. وبعد أن صرفه سيزار، أطفأ الأنوار ثم ذهب إلى مكتبه.

كان مكتبه الهادىء الذي تغطي الكتب جدرانه، واحة يلجأ إليها في حياته المرهقة. فما من أجهزة فاكس أو كمبيوتر أو شاشات تلفزيون لتفسد عليه جوّ الراحة والاسترخاء هنا. ومهما بلغ ضغط العمل، فقد وضع لنفسه قاعدة وهي ألاّ يحضر معه عمله إلى البيت الذي صادف أنه يستعمله حالياً.

أخذ يذرع الغرفة بخطوات سريعة متوترة وقد جمّد الغضب كتفيه.

قالت إن أمرهما انتهى... هكذا بكل بساطة.

لم يتعوّد أن يحصل الفراق بهذا الشكل. فهو الذي ينهي علاقاته القصيرة. والنهاية يُشار إليها بحذر قبل أسابيع. والفراق يحدث بشكل ودّي بكلمات رقيقة آسفة... وهدايا كثيرة... سيارة، مجوهرات... عطلة غير عادية... تبعاً لقيمة السيدة صاحبة الشأن واعتباره لها.

لكن لم يحدث الأمر مثل هذه المرة قط من قبل، كما لم يكن هو مستعداً لإنهاء العلاقة!

نظر إلى الكتب الموضوعة على الرفوف عابساً من دون أن يراها. كان الغضب الهائج في صدره يطالب بمتنفّس.

ثم من أين جاءه عرض الزواج ذاك؟ لا بد أن عقله تعطّل! خروج

تلك الكلمات من فمه من دون تفكير صدمه بعنف.

انقبضت يداه وتوتر فمه بشدة آلمت أسنانه. ولكنها تجاهلت ما قاله بكل بساطة. لم تكشف ولو بخفقة من أهدابها الرائعة ما إذا أحدث عرض الزواج... ذلك العرض الجنوني، ذرة من التأثير فيها.

نساء كثيرات على استعداد لارتكاب جريمة في سبيل أن يسمعن هذه الكلمات من فمه! أما بيانكا جي فقد نظرت إليه، بكل بساطة، ثم سارت في طريقها!

لا أحد... نعم لا أحد يذلّ سيزار أندريوتي يفلت من العقاب.

وبغضب بالغ أخذ يشتم بالإيطالية. لكه ما لبث أن تمالك نفسه، وأخذ نفساً طويلاً علّه يهدأ لكنه لم يفلح في ذلك.

لقد رغب ببيانكا جي منذ أول نظرة، ولم تكن هي سهلة أبداً... فقرر أن ينتظر، ولكن شيئاً ما أخذ يصبح أكثر تعقيداً في نفسه، فلم يعد يهمه إقناعها بالخضوع لمطالبه إذ كان يكفيه وجودها في حياته.. وهو شيء غريب لا يفهمه.

كانت بيانكا المراوغة رائعة الجمال، تثير فضوله، كما أنّ شوقه إليها كاد ينسف عقله.. لكنها كانت تضع بينهما حداً يبقيه بعيداً عنها، فلم تدعه يعرفها حقيقة.

لقد رفضت الانتقال للسكن معه، فجعلت من علاقتهما علاقة صداقة. كما أوضحت أنها لن تقبل أياً من الهدايا التي كان يرغب في إمطارها بها، كما رفضت أن تتحدث عن خلفيتها وأسرتها فكانت تغير الموضوع بحلاوة وسهولة كلما تطرّق إليه.

ورغم تعاظم رغبته في أن يعلم ما الذي شكّل شخصيتها الحالية، إلا أنه احترم رغبتها في الكتمان، فكبح رغبته في كشف غموضها، ووضع حدّ لهذه المراوغة التي أصبحت جزءاً من علاقتهما.

توجّه إلى مكتبه وأخرج من أحد الأدراج دفتراً مستطيلاً ثم أخذ يقلّب صفحاته حتى وجد الرقم الذي يريده.

ما حدث هذا المساء غيّر القواعد كلها. احترامه لعزلتها أصبح الآن من دون معنى.

جلس على كرسيه المريح ومدّ يده إلى الهاتف وقد ضاقت عيناه غضباً وصلابة.

لا تغضب، وكن هادئاً!

* * *

قالت جين بلهجة قاطعة وهي تضع ملعقة السكر الثالثة في قهوتها: «لن ينجح الأمر، أليس كذلك»؟

بدت في تنورة التويد الزاهية اللون والقميص القطني، وبشعرها الرمادي المرتّب جداً، كشخصية واثقة عقلانية هادئة يمكن الاعتماد عليها. وتنهدت بيانكا، إذ عليها أن تعترف بصحة كلام خالتها الخالي من الإحساس. في الماضي، كانت تواجه إدمان أمها وتغير مزاجها المفزع وحدها، ولكن بعد تكرر الحوادث تملكها الذعر حقاً.

طلبت لأول مرة العون من أحد، إذ لجأت إلى خالتها الأرملة جين. واغرورقت عيناها بالدموع وهي تتذكر عرض خالتها الفوري: «يمكنها أن تقيم معي في «بريستول» بينما تبيعين أنت كل شيء وتجدين مكاناً آخر تعيشين فيه. وسأمضي أنا الأسبوع أو الأسبوعين التاليين معكما حتى تعود إلى رشدها وتتحسّن نفسيتها، فأحرسها أثناء ذهابك إلى العمل. من الواضح أنه لا يمكن أن تبقى فترات طويلة وحدها».

وتشبثت بيانكا بهذا العرض شاكرة. عقد إيجار هذا البيت سينتهي

بعد شهرين، والبحث عن شقة يمكنها أن تتحمّل كلفة إيجارها، ودوام وظيفتها، واتخاذ القرار المناسب بالنسبة إلى الأثاث... كل هذه الأمور تراكمت فيما هي تواجه مشاكل أمها ما سيجعلها تعيش كابوساً حقيقياً.

وافقت هيلين بوهن وضعف على ذلك، وكانت قد خرجت حديثاً من المستشفى شاعرة بالحاجة والضعف. لكن بعد ما جرى الليلة الماضية وعودتها إلى إدمانها السابق على الكحول، بدا واضحاً أنها لن تبقى خمس دقائق في شقة أختها الصغيرة الواقعة في طريق هادىء في ضاحية بريستول.

قالت جين: «أنا أحب أختي كثيراً، ولكنني لا أستطيع تحمل المسؤولية. فهذا لن يكون عدلاً بالنسبة إلينا، نحن الاثنتين. ما تحتاجه هو عون طبي. أحدى تلك العيادات التي قرأت عنها، حيث يذهب نجوم السينما والرياضة للاستشفاء».

ابتسمت بيانكا وهي تناول خالتها طبق الخبز المحمص وتسكب لنفسها فنجان قهوة شعرت أنها بحاجة ماسة إليه: «إنها ترفض أن تعرض على طبيبها مشاكلها، لأنها لا تريد أن تعترف بأنها تعاني من شيء. لكنها قد توافق على الذهاب إلى العيادة، فهذا يناسب صورتها! ولكن لسوء الحظ، لا يمكننا دفع نفقات هذا النوع من العلاج».

- ألم يبق شيء من نفقة الطلاق؟

- تبخّرت منذ سنوات.

وهزت كتفيها بضعف. لقد أنفقت أمها نفقة طلاقها بكل طيش على آخر الأزياء الفاخرة، وعلى إقامة الحفلات الفخمة.

- إذاً، أطلبي من أبيك أن يدفع نفقات العلاج، فهو ثريّ للغاية. وما تعيشه الآن هو ذنبه إلى حدّ كبير. أنت تعلمين أنني لطالما حسدت

أختي... عندما تزوجت كونراد جي، ظننتها حصلت على كل شيء. أمواله أوصلتها، إلى أكثر طبقات المجتمع تألقاً. كانت رائعة الجمال بينما كنت أنا عادية تماماً. لكنني مسرورة الآن لأنني لم أكن جميلة... فعندما لا تكون المرأة جميلة لن تخسر أي شيء عندما تكبر في السن ما يجعلها تأسف وتنحرف عن الطريق المستقيم وتشعر بالمرارة. والآن، عليك أن تذهبي إلى أبيك ملتمسة العون.

- لا.

جاء الرفض غريزياً. وعندما رأت عبوس خالتها، أدركت أن عليها أن تفسر ردّها وتعطي العذر لعنادها.

فرغم أن الشقيقتين بقيتا على اتصال بواسطة الرسائل والاتصالات الهاتفية في المناسبات، إلاّ أنهما نادراً ما كانتا تتكلمان عن حياتهما، وهناك الكثير مما لا تعرفه خالتها. كانت هيلين نائمة بعيداً عن تأثير صخب الليلة الماضية بعد أن ألقت بفنجان الكاكاو الذي قدمته لها أختها، قائلة: (لكي يساعدك على استعادة الهدوء يا عزيزتي).

رمت الفنجان على الجدار في غرفة الجلوس وهي تصرخ بهستيرية ثم استسلمت للنوم... عندئذ، استطاعت بيانكا وجين أن تتحدثا بصراحة.

قالت بيانكا: «لم أقابل أبي سوى مرة واحدة وكنت عند ذاك في الثانية عشرة. كانت ليلة عيد رأس السنة وهو في زيارة إلى لندن، فقد كان يعيش حينذاك في الولايات المتحدة. أراد أن يراني، ولم يكن قد أبدى من قبل ذرة من الاهتمام بذلك. ذهبت إلى فندقه وأنا أكرهه، ليس لأنه لم يعترف بوجودي، ولكن بسبب ما فعله بأمي».

ومالت إلى الخلف في كرسيها وهي تتذكر ذلك اليوم الفظيع: «قبل ذلك بأسبوع، حدث خطب ما لأمي. لا تسأليني ما هو، لأنني لا

أتذكره... لكنها بدأت تشرب وظهرت عليها علامات الاكتئاب، ثم أخبرتني أنني أصبحت كبيرة بما يكفي لكي أعلم أي حشرة هو أبي. كانت في الحادية والعشرين عندما قابلته وتزوجا. بقيت سعيدة جداً مدة عامين، تعيش حياة ترف ورقي. ثم اشتبهت في أنه يرى امرأة أخرى. ولهذا تعمّدت أن تحمل بي، ظناً منها أن ذلك سيمنعه من السعي خلف النساء. لكن ذلك لم ينفع. تركها من أجل امرأة أخرى في مشهد مذل أمام الناس. لقد دفع أجرة هذا البيت مدة خمسة وعشرين عاماً كجزء من نفقة الطلاق، وبعدئذ لم تره قط. أظنها كانت تحبه إلى أقصى حد، ولم تنسه قط في الواقع».

هزت بيانكا كتفيها، عالمة أنها تسبب صدمة لخالتها صاحبة المبادىء الأخلاقية المتشددة: «لقد نشأت في صحبة (أعمام) كانوا يتغيرون على الدوام. كان بإمكانها أن تتزوج أياً منهم، إذ كان الحب البالغ يبدو عليهم، لكنهم كان يعانون من عيب ما. وبمعنى آخر، لم يكونوا (كونراد جي). لم تكفّ عن حبه قط، لكنها كانت بحاجة إلى هؤلاء الرجال في حياتها لكي تقنع نفسها بأنها ما زالت مرغوبة، وتلفت الأنظار. وهكذا، بلغت الثانية عشرة وأنا أكره أبي. وعندما جاء ذلك الاتصال الهاتفي المفاجىء، وضعتني أمي في سيارة أجرة وأخذتني إلى الفندق. ثم وضعني أبي في سيارة أخرى ليعيدني إلى البيت. أثناء ذلك اللقاء، أخبرته بالضبط رأيي فيه بعد أن آلم أمي وقلت له إنني لا أريد أن أراه مرة أخرى مهما حصل. كل ذلك أمام آخر زوجاته التي لم تكن تكبرني بأكثر من سبع أو ثماني سنوات. ولذا، ربما تتفهمين لماذا أعتبره آخر شخص أريد أن أطلب العون منه. وحتى لو شئت ذلك، ليس لدي فكرة عن مكانه وكيفية الاتصال به. ومغزى هذه القصة أن أمي قالت لي مرة ألاّ أتزوج رجلاً غنياً قط، لأن الرجال الأغنياء يعرفون ثمن

كل شيء لكنهم لا يعرفون قيمة أي شيء».

هذه نصيحة غُرست في أعماقها أكثر مما كانت تدرك، وساعد على تجذّرها الدمار الذي ألحقه ذلك الزواج بأمها وهذه النصيحة نفعتها حين صدمها سيزار بعرضه الزواج عليها.

نبذته، ونبذت مشاعرها نحوه، ثم نهضت واقفة، مرغمة نفسها على أن تحصر تفكيرها في كيفية معالجة مشكلة أمها مع احتفاظها بعملها الذي كان ضرورياً إذا شاءت أن تنفق عليهما، هما الإثنتين.

لكن، في تلك اللحظة، بدا ذلك مستحيلاً!

* * *

٣ ـ بدون قيد أو شرط

لقد حصل عليها!

وحيث يريدها بالضبط!

ركن سيزار سيارته الفيراري في المكان الخالي أمام منزل «هامبستيد» ثم أطفأ المحرك. وشعر بغضبه كقبضة حديدية تسحق شعوره بالنصر، وتقسي قراره الحازم.

كان فمه متوتراً... مهما كان رأي بيانكا جي الجريئة، إلاّ أنه لم ينته منها بعد. المعلومات التي حصل عليها تضمن له أن تستمر علاقتهما حتى ينهيها بنفسه، وبشروطه هذه المرة وليس بشروطها. هذا ما تمليه عليه كبرياؤه الإيطالية. وستتعلم أنه لا يمكن لامرأة أن تتخلّص من رجل من آل أندريوتي وكأنه بأهمية الذبابة. إنه درس مفيد يسره أن يلقنها إيّاه.

ألقى نظرة علي واجهة بيتها، ثم كبت غضبه بإرادة فولاذية، محدثاً نفسه بضرورة التحلي بالهدوء.

لقد أصبحت أسرارها بين يديه وسيستغلها كلها لمصلحته.

ترجّل من السيارة وصعد درجات المنزل وقد تصلب فمه، ثم ضغط على جرس الباب.

لقد اتصل بالأمس برئيستها إنستازيا لينلي، فعرف منها أنها تلقّت

لتوها اتصالاً مفاجئاً من بيانكا التي طلبت إجازة غير محددة ومن دون راتب. وهكذا، إذا لم تخرج للتسوّق في الساعة الثامنة صباحاً، فسترد على الجرس.

توترت أعصابه لمجرد التفكير في أنه سيراها مرة أخرى، وسيغرق في سحر عينيها الرائعتي الجمال اللتين تخفيان الكثير عنه...

لقد بقيت بعيدة عنه، كما ذكّر نفسه. ولم يعرف حقيقتها قط. بيانكا الحقيقية بقيت بعيدة عنه.

أن يكبح شوقه إليها أصعب بكثير من أن يكبح غضبه... سلّم بهذا متوتراً وهو يضع إبهامه على زر الجرس من دون أن يرفعه. لكن عندما سمع صوت المزلاج وهو يرتفع أصبحت ملامحه بقسوة الحجر.

ـ سيزار...

خرج اسمه من بين شفتيها الممتلئتين أشبه بالآهة، وكأن رؤيته هنا أكثر مما تحتمل. وعندما ابتدأ احمرار وجهها لرؤيته ينحسر، لاحظ أن بشرة وجهها شاحبة كالرماد. وكأنها أمضت الليل مستيقظة قلقة.

كره أن يراها هكذا، رغم علمه أنه لا ينبغي أن يجد العطف مكاناً له في نفسه أثناء تعامله مع هذه الغادرة التي حطمت كرامته وداست عليها. ولماذا تنام مرتاحة بينما يستلقي هو قلقاً طوال الليل، يخطط للانتقام تارة، ويتملكه الحقد والغضب لكبريائه المهانة تارة أخرى؟

أخذ يهدّىء الجزء الذي شعر بالألم لكدرها. فقلقها على أمها سيتلاشى بسرعة، ما سيخفف من شعوره بالذنب لأنه أيقظها من نومها، إذ لاحظ تشعث شعرها الأسود الحريري الطويل، والعباءة التي ارتدتها بسرعة وربطت حزامها فوق جسدها. وأجاب بهدوء: «يجب أن نتحدث».

ـ ليس هناك ما يقال.

كان صوتها حذراً، وقد ابيضت أصابعها التي أمسكت بالباب المفتوح جزئياً. كان قلبها قد قفز من مكانه ثم أخذ ينبض بعنف.

لم تكن تظن أنها ستراه مرة أخرى واعتقدت أنها حالما تخبره بأن علاقتهما انتهت، سينظر إليها وهي تبتعد ربما بشيء من الأسف، ثم يهز كتفيه العريضتين ويبدأ البحث عن مرشحة أخرى بدلاً منها تؤمن له ما يريد، فهذا ما يفعله أمثاله من الرجال.

بصرها الذي خفضته حزناً بعد مفاجأة رؤيته، عادت ورفعته وقد فتحت عينيها على اتساعهما لتواجهه.

بذلته الرمادية الرائعة التفصيل، وقميصه الأبيض الذي يبرز لونه الأسمر وفكه الصلب الداكن دوماً بصرف النظر عن وقت حلاقته، ربطة عنقه الداكنة اللون التي تتلاءم مع لون عينيه المتأمل المتقلّب الكئيب، كل هذه التفاصيل أظهرته بالضبط كما هو حالياً... رجلاً إيطالياً أنيقاً، مسيطراً، واثقاً من نفسه ومما يقوم به.

أخذت نفساً عميقاً كانت بأمسّ الحاجة إليه. تأثيره الغريب عليها جعل من المستحيل أن تمنعه من الدخول عندما مرّ بها بهدوء داخلاً إلى الردهة.

سألها باختصار وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين وبهدوء بالغ:

«أين»؟

كان كل إنش منها يرتجف تحت العباءة. سارت أمامه إلى غرفة الجلوس الصغيرة في آخر البيت فيما ذهنها يعمل بسرعة باحثاً عن سبب حضوره.

هل جاء ليشتمها لأنها أنهت علاقتهما هكذا؟ لكن هذا لا يبدو معقولاً. فبالنسبة إليه وإلى الرجال الآخرين من أمثاله، العلاقة الأفلاطونية تُنسى بسهولة.

أجاء ليكرر عرض زواجه المجنون؟ بدا لها هذا غير ممكن، لأن كبرياؤه الإيطالية لن تسمح له بالتوسل.

ولكن إذا كان هذا هدفه... ودبّ الذعر في عقلها المتعب. هل ستتمكن من مقاومته وهي التي سرعان ما يسحقها وجوده وحضوره بمجرد أن تنظر إليه؟

إنها حقاً لا تريد هذا. وصرخ ذهنها المتعب احتجاجاً، فهي لا تستطيع أن تحتمل رؤية سيزار مرة أخرى.

لم تسرّ رئيستها على الإطلاق عندما عجزت، هي بيانكا، عن تحديد مدة الإجازة التي تريدها. لكن من المستحيل أن تحدد الوقت اللازم للعثور على مسكن بديل والانتقال إليه، ثم إقناع أمها العنيدة بقبول العناية الطبية، فضلاً عن إقناع خالتها جين بتمديد إقامتها معهما لضرورة ذلك.

أغلقت باب غرفة الجلوس خلفهما ثم نظرت إليه بشيء من فروغ الصبر، محاولة أن تمنع الحزن الأخرس من أن يفيض من عينيها.

لا بد أن سيزار أندريوتي يبدو في غير مكانه. فرجولته الجلية تتناقض مع ذوق هيلين الأنثوي للغاية في اختيار الديكور.

لكنه سيطر على الوضع كعادته دوماً، كما فكرت معجبة رغماً عنها. لقد بهت ما يحيط به وأصبح تافهاً أمام شخصيته الطاغية حين أشار إليها بالجلوس على إحدى الكرسيين اللتين تحيطان بطاولة مصنوعة من خشب الورد، قبل أن يجلس هو نفسه متمهلاً.

مدّ ساقيه الطويلتين أمامه وأراح ذراعيه على ذراعيّ الكرسي كما أرجع رأسه إلى الخلف. بدا عليه الاسترخاء كلياً، لكن لمعان عينيه البارد أعلمها بأنه مهما كان سبب وجوده هنا، فهو مجرد عمل.

كان الصمت مشحوناً بالتوتر وبتوقّع شيء لا تدري ما هو. الطريقة

التي كان يتأملها بها جعلتها تخفض رأسها. فعيناه الساحرتان المتقلبتان راحتا تجولان على جسمها وكأنه يقيّم كل تفصيل أو خط في قوامها.. ليمنحها لاحقاً علامات تقدير.

عضت شفتها وهي تقول بصوت غليظ: «ماذا تريد يا سيزار؟ في الواقع، ليس لدي وقت فأمامي الكثير من العمل اليوم».

حاولت بكلامها هذا أن تسيطر بعض الشيء على الموقف، فنظرت إليه لترى تأثير كلماتها لكنه تجاهل محاولتها المثيرة للرثاء، ثم قال بلطف: «عقد إيجار بيتك سينتهي قريباً، وأشك في أن تتمكّني من تجديد راتبك. لذا، فإنك تحتاجين إلى العثور على مسكن بديل في أسرع وقت. لكن هذا ليس سهلاً نظراً لارتفاع أسعار الأملاك في لندن وحب هيلين سنكلير للرفاهية في هذه الحياة. أليس ما أقوله صحيحاً؟»

حدّقت إليه بصمت وهي تشعر باللون القليل الذي في وجهها يزول. كيف عرف اسم أمها قبل الزواج؟ ومن أخبره أن عقد إيجار البيت الذي امتد لخمس وعشرين سنة والذي هو جزء من نفقة طلاق أمها، قد شارف على الانتهاء؟

كانت حذرة للغاية فلم تطلعه على تفاصيل حياتها الشخصية، وهمومها واهتماماتها أثناء علاقتهما. ليس لأنها تخجل من المصير الذي تتجه نحوه أمها بسرعة، بسبب وقوعها في غرام رجل ثري يرى أنّ من حقه أن يبدل نساءه كما يبدل سياراته ما جعلها تفسد حياتها.

بل لأنه لن يهتم بمشاكلها. ما كان بينهما هو كالعلاقات التي اعتاد عليها حيث يلتزم الفريقان بالقواعد الأساسية: ما من ارتباطات، أو عهود.

تابع قائلاً بأسف: «عارضة أزياء جميلة جداً ومرغوبة للغاية حين كانت في أوائل العشرينات من عمرها، إنها أمك التي اعتادت الإعجاب

وتلقيّ الاهتمام والأجور الكبيرة».

وألقى عليها نظرة أنبأتها أنه يشعر بالتسلية لرؤية فمها المفتوح بذعر وعدم تصديق فيما تابع: «بعد زواجها من أبيك اعتادت حياة الكسل والترف، والتألق والمناسبات الدولية الإجتماعية الرائعة حيث كل ما عليها أن تفعله هو أن تبدو رائعة الجمال لكي تنال تقدير الرجال المفتونين. وبعد الطلاق، كانت قد فقدت أصول المهنة منذ وقت طويل. لكن هذا لا يهم، أليس كذلك؟ فنفقة الطلاق كبيرة ولا يستهان بها. على أيّ حال...»

واخترقتها نظراته ليجدها سجينة عاجزة إزاء تعذيبه لها: «المال تبدّد، أنفق على حفلات مترفة وأصدقاء استغلاليين والبحث الدائم عن التملق والإطراء. وازداد سوء الأحوال في الأشهر الأخيرة... إن لدى هيلين مشاكل عديدة. فهل من حاجة لأن أقول المزيد؟»

هزتها الصدمة، فكل ما أخفته عنه أصبح علنياً الآن. وشعرت بغثيان. كانت مشاكلها ترضيه، وهذا طبيعي. وفي تلك اللحظة شعرت نحوه بكره عنيف كاد يحطمها نهائياً.

هل هذا الرضى الكريه طريقته في العودة إليها لإنهاء علاقتهما؟ بعد أن تصرّفت بطيش وتجاهلت عرض الزواج الذي تقدّم به؟

جمدت مكانها لثقل ما يعرفه، وتصلبت شفتاها وهي تسأله مرغمة: «من أين حصلت على هذه المعلومات كلها؟»

ـ الأمر بسيط.

كان لديه الجرأة ليبتسم. التواء فمه الجذاب الذي سحرها ذات يوم، ملأها الآن بموجة من الاشمئزاز ما أرسل قشعريرة في جسدها. ويتابع يقول: «بواسطة مخبر خاص. بليكلي هو الأفضل في مجاله.

اتصال هاتفي واحد، إسم، عنوان، فيأتي بكومة من المعلومات الهامة».

دفعها الغضب إلى التنبه، فأحكمت شدّ العباءة على صدرها وقد احمر وجهها وهي ترى نظراته المقيّمة.

تجاهلت بحزم اضطرابها والحرارة التي اكتسحت وجنتيها، وقالت بقدر ما أمكنها من البرودة: «حسناً، هذه مهارة فائقة منك، رغم أنني لا أدري ما الذي سرّك في نبش القذارة في أسرتي؟».

فقال بابتسامة تنذر بالوعيد: «ألا تدرين؟»

كانت بيانكا قد سمعت بأن سيزار أندريوتي هو أقسى رجل أعمال على وجه الأرض. لكنها لم ترَ تلك الناحية من شخصيته من قبل. والآن حين رأتها، شعرت بدمها يجري بارداً في عروقها، وارتجف فمها وهي تصغي إلى كلماته البطيئة المليئة بالثقة بالنفس: «شعرت بسرور بالغ. هل هذا جواب شافٍ؟ أنا لم أتعب يا عزيزتي بعد من علاقتنا، وإلى أن أشبع منك أنا ستستمر علاقتنا. ولأني أعرف أنك لن تقيمي علاقة خارج إطار الزواج... فسيكون لك هذا الزواج...».

ـ لا!

انطلق هذا الرفض الغريزي منها بعنف. هذا لن يحدث! مع كل يوم يمرّ كان حبها له يزداد. وإنهاؤها علاقتهما كان أصعب عمل قامت به في حياتها. والاستمرار في هذه العلاقة حتى يقرر هو إنهاءها ويودّعها راحلاً، سيزيد الضرر الذي سبق أن أصاب قلبها، خاصة إذا كانت زوجته.

تجاهل العذاب الذي حملته هذه الكلمة الوحيدة، وقسى قلبه في مواجهة التعاسة التي بدت في عينيها الذهبيتين... هاتين العينين اللتين كانتا، ذات يوم، تشعان سعادة لرؤيته. وقال: «مقابل ذلك سأحلّ

مشاكلك. سبق وتحدثت إلى البروفسور ڤاكاري. وماركو ڤاكاري هو إخصائي في معالجة المدمنين وقد وافق على أن يمنح أمك الرعاية التي تحتاجها، كما سأجدّد عقد إيجار بيتك. وبهذا وبعد أشهر من العلاج في الجزيرة، ستجد هيلين المتعافية المتوازنة بيتاً لتعود إليه».

ـ لا يمكنك هذا!

كان رأسها يدور بعنف بحيث لم تجد سوى هذه الكلمات القليلة فحتى إيجار قصير الأمد سيكلّف الكثير من المال. هذا شيء لا يمكنها أن تحتمله.

ـ على العكس.

وتحول بصره إلى طريقة تشبثها بذراعي الكرسي وقد ابيضت أصابعها من قوة الضغط، وكأنها متلهفة لأن تجد شيئاً حقيقياً ملموساً تتعلق به: «يمكنني أن أفعل ما لطالما أردته. لقد رفضت أن تسكني معي. رفضت هداياي».

وتوترت شفتاه لهذه الذكرى. فقد رأى رفضها دليلاً على استقلاليتها، ولم يشأ أن يعترف، حتى لنفسه، إلى أي حد جرحه هذا، وكيف شعر بشيء من الوحدة. وكانت هذه سخافة، طبعاً.

ـ يمكنك أن ترفضي مرة أخرى، فهذه عادتك. والخيار يعود لك طبعاً. ولكن فكّري في ذلك لحظة. مشاكلك ستستمر. وهل تظنين حقاً أن أمك ستقصد إلى الطبيب لتطلب منه العون الذي تحتاجه؟ أليس خيرها وسعادتها من أولوياتك؟

طبعاً! كيف يجرؤ على أن يلمح إلى خلاف ذلك؟ إنها تحب أمها للغاية وتشعر ببالغ الأسى من أجلها، وتتفهم جيداً ما جعلها بهذه الحالة. واغرورقت عيناها فجأة بالدموع فأخذت تغالبها بغضب ثم صرفت بأسنانها لكي تمنع فمها من الارتجاف.

وكان يراقبها فشعر بقبضة حديدية تشتد حول قلبه. هل هي من العناد والعزم إلى هذا الحد لتبعده عن حياتها؟ إلى حد أن ترفض التفكير في عرضه هذا؟

وهل هو، ولأول مرة في حياته، على وشك أن يتخلى عن شيء سبق أن صمّم على الحصول عليه؟ فكرة أن يخسر ما يريده أكثر من أي شيء آخر... أن يخسر وجود بيانكا في حياته طوال المدة التي يريدها فيها... هذه الفكرة أرسلت فيه إحساساً بالذعر لم يعرفه من قبل.

كبح بحزم هذا الشعور الذي رفض الاعتراف به، ووضع مشاعره جانباً ثم أخذ يتلاعب بمشاعرها بمهارة الخبير وهو يقول بإغراء ونعومة: «فكري في جزيرة تغمرها الشمس، فيلا رائعة الجمال، وعناية إخصائي بهيلين، وأنا وأنت زوجان يقيمان بالقرب منها. ثم إننا متلائمان وأنت تعلمين هذا. وبهذا لا يكون وفاؤك بحصتك من الإتفاقية مشكلة».

بل سيكون كذلك. ربما ليس لديه فكرة عن عظم المشكلة التي ستحدث!

كان الأمر مغرياً جداً. أن تكون حيث تتشوّقت دوماً لأن تكون، أن تبقى معه. ذلك الشوق الذي تطوّر حتى أصبح حاجة إلى أن يحبها، حاجة إلى الالتزام الذي يبدو أنه ليس بإمكانه، أو لعله لا يريد، أن يمنحه.

هزت رأسها من دون وعي. ذلك الشوق العميق أصبح الآن من الماضي. فهي لا تريد أن يحبها رجل يستعمل الابتزاز ليحصل على مبتغاه. وهل هي مجنونة إلى ذلك الحد؟ جمعت أفكارها المشتتة ثم أرغمت نفسها على العودة إلى ما قاله: «أنت تتحدث عن جزيرة، عن علاج.. أين؟ وما هي المدة؟»

كانت تعلم أن صوتها بدا فاتراً. تعمّدها الرتابة في الكلام كان الطريقة الوحيدة لمنع نفسها من إلقاء اللوم على الرجل الذي أحبت والذي جاء إليها الآن بلباس عدوّ. لأن العدو وحده يمكن أن يطلب منها أموراً تحطم قلبها في النهاية: «وكيف لي أن أعلم أن ذلك البروفسور يمكنه أن يساعد أمي؟».

بدا هذا أغرب من أن يصدق. إنه يخدعها بقسوة... لا بد أن الأمر كذلك. ثم كيف أمكنها أن تتصور أنها غارقة في حب رجل ينحط إلى هذا المستوى؟ وتملكها توتر مفاجيء جعلها تقفز وتندفع إلى الباب لتفتحه: «أخرج من فضلك».

لم يتحرك سيزار، لكن عينيه تبعتا حركاتها اللينة المغرية. كانت غاضبة الآن، وبشكل مثير، وقد رفعت رأسها بكبرياء فبان عنقها النحيل وشعرها الرائع كالحرير الأسود، وعيناها العنبريتان اللتان تتوهجان تحذيراً. وكان جسدها الأسطوري الجمال متوتراً، فقفز قلبه في صدره. لم يرغب فيها قط من قبل كما يرغب فيها في هذه اللحظة.

بذل قصارى جهده ليتحكّم بمشاعره ويستعيد السيطرة على الوضع. نهض ببطء واقفاً، ثم اتكأ بظهره إلى المائدة الأنيقة وساقاه متقاطعتان عند الكاحل ويداه في جيبي بنطلونه وهو يواجهها: «رداً على سؤالك، البروفسور ڤاكاري هو الأفضل في مجاله. وما كنت لأطلب خدماته لوقت غير محدد لو لم يكن كذلك. وجزيرتي لا تبعد كثيراً عن جزيرة صقلية. ومساحتها فدادين عدة فقط، لكنها رائعة الجمال. أما الفيلا فهي توفر لهيلين كل ما تحتاجه من رفاهية وترف، كما أنها منعزلة عن إغراءات حياة اللهو الليلية في المدن. أما تلقي هيلين العناية اللازمة والعطوف، فهذا ما أضمنه لك. وسنكون أنا وأنت قريبين منها، فترينها يومياً حتى لا تشعر بالوحدة بين الغرباء، وستأتين إلى فراش

الزوجية كلما استدعيتك».

قال هذا ساخراً بلطف فصرفت بيانكا بأسنانها حتى آلمتها ذقنها. لقد رأت ناحية من سيزار لم تعجبها على الإطلاق. إنها ناحية لم تلاحظها حين كانت تغرق في حبه ببطء إنما بشكل مؤكد.

صفة (غطرسة) هي كلمة لطيفة جداً نظراً للطريقة التي كان يحشرها فيها ليضمها في هذا الوضع المحرج.

انتبهت إلى حركة غامضة في المنزل، ثم شمت رائحة القهوة والخبز المحمص ما يعني أن جين استيقظت وهي قريبة تحضر الفطور، فأغلقت الباب. لقد فشلت في إخراجه من المنزل ما أشعرها بالندم وجعلها تبدو خاسرة تماماً.

لكنها لم تخسر أو على الأقل، ليس تماماً. رفعت رأسها ونظرت إليه ببرودة الثلج ثم قالت عابسة: «لكي تدفع نفقات علاج أمي، عليّ أن أتزوجك، ليس من أجل الحب بل من أجل تلبية رغباتك في السرير الزوجي. يبدو هذا التعويض قليلاً مقابل الأموال الكثيرة التي ستدفعها. أتظن أنه يكفي أن تخرج المال من خزائن أندريوتي التي لا قرار لها ثم تشتري ما تريده؟».

لمعت عيناه. رباه، لم يدفع مالاً قط من أجل امرأة في حياته، لكنه يرضى، وعن طيب خاطر، بأن يفلس من أجل هذه المرأة، علّه ينتقم منها للطريقة التي أهانته بها حين طردته من حياتها.

قال لها بلهجة مطاطة: «أظن أن هذا ما يفعله الناس. يرون السلعة التي يريدونها، ثم يخرجون لشرائها».

إذن، فهي (سلعة) الآن، كما أخذت تفكر بغضب. ثم هبطت كتفاها بشكل يائس لأنها، في الحقيقة، هذا ما هي بالنسبة إليه، أو ما ستكون عليه. الأمر الوحيد الشاذ في حالتها هو رفضها الاستسلام له

وقبول هداياه التي حاول أن يغدقها عليها.

شبكت ذراعيها على صدرها واتكأت إلى الباب ثم أغمضت عينيها محاولة أن تجد طريقة تنهي بها هذا الكابوس المذلّ. بالنسبة إلى هيلين، بدا ما اقترحه مثالياً. فيللا فخمة على جزيرة رائعة. هواء نقي وشمس مشرقة وشخص عطوف مؤهل يساعدها على استعادة صحتها، واستعادة أسلوب الحياة البناء وليس الهدام الذي اتبعته..

الأمر الوحيد المستحيل، هو اضطرارها للزواج منه لفترة يملّ بعدها منها فيتركها كما ترك والدها أمها. لقد أحبته وما زالت تشعر بهذا الحب يملأ كيانها. لكنها الآن مرغمة على الانصياع لرغبته، عالمة أنه اشتراها ودفع الثمن، وأنها وقعت ضحية خداعه القاسي، وأنها ستستيقظ كل صباح وهي تتساءل عما إذا كان هذا اليوم هواليوم الذي سيخبرها فيه أنه تعب منها وسيطلقها. جزء منها يرجو أن يحصل هذا، والجزء الآخر يريده أن يبقى معها إلى الأبد.

ولكن هل سيصبح العيش معه من أجل مصلحة أمها مشكلة؟ وأخذ ذهنها المنهك يفكر. محاولاتها لاصطحاب أمها لرؤية طبيب عادي باءت جميعها بالفشل. ولكن في جزيرة إيطالية تملكها أسرة أندريوتي الثرية، ستشعر بأنها شخصية مدللة وغير عادية... وليست مجرد رقم في صف طويل في مؤسسة الضمان الصحي في إنكلترا.

كان سيزار ينتظر جوابها. واستطاعت أن تشعر بعينيه عليها تحرقان جلدها.

بللت شفتيها الجافتين بطرف لسانها ثم رفعت إليه بصرها: «من حيث المبدأ أنت لم تمنحني أيّ خيار. لكنني أريد أن أعدّل الشروط. خالتي جين سترافق أمي، وأنا سأنتقل إلى بيتك هنا، في لندن، كزوجة إذا كان هذا ما تريده».

وسكتت لحظة ثم أردفت: «فبهذه الطريقة لن تبتعد عن عملك، وكذلك أنا، ويمكنني أن أبحث عن بيت بديل وهذا يعني ألاّ يتوجب عليك أن تدفع آلاف الدولارات لكي تجدد الإيجار هنا».

ولكن الزواج سيحمي سمعتها، وستكون وظيفتها آمنة، ولن يتملكها القلق على ما قد تفعله أمها. وحالما يتعب منها، ومما تعرفه عنه لن يطول الأمر كثيراً، سيطلقها نابذاً إياها كما نبذ والدها والدتها من قبل.

امتد الصمت بينهما لحظة طويلة أمكنها خلاله سماع تنفسها الممزق المجفل، ودقات ساعة الحائط المعدنية. لم يبد عليه أنه سمع كلمة مما قالته، كما أن ملامحه لم تتغير ولو بطرفة عين.

وفجأة التوى جانب من فمه بشبه ابتسامة ونطق بكلمة واحدة: «لا».

* * *

حُسم الأمر على مائدة الإفطار. جين التي اقتفت أثر ابنة أختها إلى غرفة الجلوس، أصرت على أن يتناول زائرها الإفطار معهما. كما أن سيزار سحر خالتها كما أدركت بيانكا.

- هذا بالضبط ما سيفيد أختي. ظننت أننا، أنا وبيانكا، يمكنا أن نتعاون، ولكن، لا يمكننا ذلك بصراحة. كما أنني بحاجة إلى إجازة، أنا أيضاً. لم أحصل على إجازة منذ وفاة زوجي. هذا حقاً كرم بالغ منك يا سيد أندربوتي.

- بكل سرور، يا جين.

ومدّ سيزار يده يتقبل منها طبقاً يحوي نصف حبة غريبفروت وبيض مقلي وعسل، ثم منحها ابتسامة يمكنها أن تدير رأس أي امرأة.

- أنا وبيانكا صديقان مقرّبان منذ فترة. وإذا احتاج أحد أصدقائي أي معونة، فيسرني جداً أن أساعده.

ومن دون أن تتفوّه بأيّ كلمة عما ستضطر صديقته المقرّبة لتحمّله لكي توفر هذا الحل السخي لمشكلة هيلين الصغيرة، دفعت بيانكا صحن التوست الذي لم يمسّ من أمامها بعيداً باشمئزاز طفلة مدللة، ثم التفت عيناها بعينيه بشكل غير حذر.

يا لهما من عينين ساحرتين! وتمنت لو تصفع وجهه الذي تعلوه ابتسامة، لكن دخول هيلين أمها أسكتها ومنعها من أن تقول الحقيقة رغماً عنها فترى شكر جين واستحسانها واعترافها بالجميل يتحول إلى صدمة وهياج.

لم يكن الصباح بالنسبة إلى هيلين يبدأ عادة قبل الظهر. ولا بدّ أنّ سبب ظهورها المبكر هو سماع صوت رجل في البيت، كما استنتجت بيانكا وهي ترى الزينة الثقيلة على وجهها وملابس نومها المشعثة.

نهضت لتسكب لأمها فنجان الشاي الثقيل الأسود الذي تكتفي به على الفطور وتركت خالتها تقوم بمهمة التعارف اللازم بينها وبين سيزار، لكنها انكمشت في داخلها وهي تشم رائحة الكحول تنبعث من أنفاس أمها.

كانت بيانكا وخالتها تحرصان على إخلاء البيت من الكحول، أو هذا ما ظنتاه... لكن يبدو أن لهيلين مخبأ خفياً.

أرهقتها الهزيمة فجلست صامتة وتركت (سيد الإقناع) يستعمل سحره ليُفهم هيلين أن (عطلة) في جزيرة إيطالية رائعة، مع عناية مستمرة من بروفسور لامع هو بالضبط ما تحتاجه امرأة حساسة مثلها.

أسماء مشهورة، ممثلات، أمراء، شخصيات رياضية... كلها وردت في الحديث: «الكثير من الأغنياء والمشهورين يدينون

للبروفسور ڤاكاري باستعادة نشاطهم وحيويتهم».

إذا كان سيزار أندريوتي يعتبرها في صف الأغنياء والمشاهير، فهذا أكثر من رائع بالنسبة إلى هيلين جي.

جعلها هذا تشعر بأهميتها، وبأنها عادت مرة أخرى شخصية غير عادية.

وبصمت، ابتدأت بيانكا تخلي المائدة من الأطباق فيما كان سيزار يودعهن واعداً بأن يرسل إليهن بالفاكس تفاصيل الرحلة خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة. تملّكها شعور بالفراغ لا علاقة له بعدم تمكّنها من تناول الفطور وهي ترى أمها تندفع في إثره مضطربة لتودعه عند الباب.

قالت الخالة جين والسرور بادٍ على ملامحها الخالية من الجمال: «يجب أن أذهب إلى المحطة لأستقل أول قطار إلى بريستول إذ لا شك أن الطقس في الجزيرة أكثر حرارة من هنا، ولهذا يجب أن أحضر بعض الملابس الخفيفة. سأحرص على العودة هذا المساء. يمكنك أن تتدبري الأمور، أليس كذلك؟ لا بد أنها أخفت زجاجة شراب في مكان ما... يمكنني أن أشتم الرائحة منها. ليتنا نأخذها إلى ذلك البروفسور بأقصى ما يمكننا من السرعة».

قالت هذا واحمرار السرور يزداد على وجهها. لم تستطع بيانكا العطوف إلا أن توافقها الرأي، لكن الثمن سيكون غالياً. واغرورقت عيناها بالدموع وهي تنحني لتملأ غسّالة الأطباق بالماء.

شتمت مشاعرها الممزقة، وغالبت دموعها بغضب عندما اقتربت منها أمها تقول متأملة: «من هو ذلك الأسمر؟ أعرف أنك تقابلين شخصاً ما... لكن لماذا اخترت سيزار أندريوتي من بين كل الرجال يا عزيزتي؟».

قالت هذا بهدوء وقد بدت عليها الرزانة البالغة ثم أردفت: «كوني حذرة، إنه رائع، وساحر وغني ويبدو أنه شخص سخي. لتكن علاقتك به سطحية بكل معنى الكلمة، ولكن إياك أن تقعي في غرامه. لقد حصل هذا معي ووقعت في الغرام لكن الأمر لا يستحق خفقة قلب واحدة».

أدرك هذا تماماً... هذا ما أخذت بيانكا تفكر فيه عابسة فيما هيلين تترك الغرفة، ربما لتنهي ما بدأته في الصباح.

الأسابيع القليلة التالية، أو المدة التي ستمضيها مع سيزار حتى يقرر أنه تعب منها، ستكون أسوأ أيام حياتها. وماذا عن أمها؟... لا تستطيع إخبارها أنها ستتزوجه.. ستبقي زواجها به سراً فأمها ستنهار إن عرفت أنها ستتزوج شخصاً هو صورة عن زوجها الغني الفاسق.. نعم.. سيبقي الأمر سراً حتى عن خالتها.. على أي حال ما هو إلا زواج مؤقت سرعان ما ينتهي.

ولكن ماذا ستفعل عندما يأتي وقت انفصالهما؟.. المشكلة أن قلبها تعلّق به وسيتعلق به أكثر وأكثر..

* * *

٤ ـ نظرة واحدة ويضيع العالم!

كانت جالسة في الطائرة تفكر في هذا النهار... ففي الصباح أخذها إلى مكتب الزواج حيث تزوجا.. كانت لحظة غريبة بالنسبة إليها فمع أنها تعلم أنه زواج لن يطول إلا أنها شعرت بشيء من اليأس والفرح يتسرب إلى قلبها.. ففي اللحظة التي أعلنهما فيها الموظف زوجاً وزوجة شعرت بأن حياتها ستتغيّر.. قبل أن يتزوجا طلبت منه ألا يخبر أمها بأمر زواجهما فوافق قائلاً: «لا يهمني.. أترك لك مسألة إخبارها..»

كان سيزار يقود طائرته الهليكوبتر بنفسه من «باليرمو» حتى آخر الرحلة. وتساءلت بيانكا حانقة إن كان ثمة حد لمواهب هذا الرجل.

كانت هيلين تجلس في المقدمة مستغرقة في الثرثرة وقد تملكتها الإثارة بسبب العلاج الذي خضعت له الشخصيات الهامة. وهي على هذا الحال منذ غادروا لندن في طائرة أندريوتي الخاصة بحيث لم تفكر بعد في الجلوس لتناول شراب.

أما جين فقد كانت صامتة تماماً، لا يصدر عنها سوى أنين مختنق. وكانت تتشبث بعنف بجانبي مقعدها وقد شحب وجهها وأغمضت عينيها. كان من السهل على بيانكا أن تفسر صمتها المتوتر بالسبب نفسه، لكن الغليان الذي تشعر به في أعماقها لا علاقة له بالغثيان الناجم

عن ركوب الطائرة، بل بهذا المخلوق الرفيع الشأن، الواثق من نفسه الذي يقود الطائرة.

وضعت أصابعها على رقبتها من الخلف تحاول عبثاً تخفيف توترها. كان شعرها ولحسن الحظ لا يزال ثابتاً في مكانه معززاً رغبتها في أن تبدو في هيئة مزرية قدر الإمكان، ولهذا لم تضع زينة على وجهها واكتفت بارتداء بنطلونها الرمادي البسيط التفصيل وقميص قطني مقفل عادي.

لكن هيلين ارتدت أفضل ثيابها، وهو طقم رائع التفصيل أصفر اللون. فقد قالت لها: «يا عزيزتي، لا يمكن أن أسافر إلى إيطاليا بملابس قديمة مهلهلة!».

وهذا يعني حمل آخر ثقيل على حسابها في المصرف، حمل عليها أن تدفعه بشكل ما. وتقبلت بيانكا الأمر متعبة. إنها حالياً من دون دخل، وإذا مدّد سيزار عقابها لأشهر بدلاً من أسابيع فستخسر وظيفتها إلى الأبد. فانستازيا لم تكن معروفة بالصبر.

ـ جزيرتي.

اخترق صوته العميق ثرثرة هيلين وأنين جين الخفيض عندما انخفضت الطائرة فوق ربوة خضراء تحيط بها شواطىء مغطاة بالحصى ومياه صافية شفافة.

ـ والفيللا.

حلّقوا بالطائرة فوق منزل أبيض يصله طريق أبيض مغبر بميناء صغير طبيعي.

سمعت بيانكا صرخة جين المذعورة وهم يهبطون، فمدت يدها تمسك بيد خالتها تهدئها لتتركها بصعوبة بعد أن هبط سيزار بالطائرة برفق وأطفأ المحرك.

بدأ انتظار توقف المحرك كأنه من دون نهاية. في ظروف أخرى، كان سيزار قد خرج منذ فترة طويلة، وجسمه الرياضي منحنٍ ليتجنب دوران الشفرات.

لكن رعايته لامرأتين في منتصف العمر جعلته ينتظر، فراح يتحدث عن رفاهية الفيللا وعن البئر الذي ينبع منه الماء النقي ومولد الكهرباء وبركة السباحة، ومجموعة الموظفين التي وصلت منذ يومين بالمراكب، والبروفيسور ڤاكاري الذي كان بانتظارهم. . كان يتحدث ويتحدث حتى شعرت بيانكا بأنها تريد ضربه.

كانت المرأتان تصغيان إلى كل كلمة منه وكأنه أكثر المخلوقات التي تسير على قدمين كمالاً، كما لاحظت بيانكا وقد تملكها الإحباط. إنما سرعان ما ستغيران رأيهما إذا عرفتا أنهماستبقيان هنا، وتعاملان كضيفتين محترمتين، حتى يقرر أنه شبع منهما! وعندئذٍ يرميها كما رمى أبوها أمها من قبل.

ولكن رؤية أمها وقد شفيت من الإدمان على الكحول، ومن نوبات التسوّق المحمومة والرغبة في أن تكون دوماً محط الاهتمام، تستحق منها أن تضحي. أخذت تعزي نفسها بهذاالكلام عندما وقفوا أخيراً على الهضبة الصغيرة المعشوشبة تحت قبة السماء الرائعة الزرقاء، فيما تعالى همس البحر الشفاف على الشاطىء الصخري في الأسفل. ولكن بالرغم من دفء شمس عصر ذلك اليوم كانت ترتجف في داخلها.

تعمدت إبعاد نظراتها عن سيزار الذي كان يرتدي بنطلون مصارعي الثيران وقميصاً مقفلاً زيتوني اللون بدلاً من بذلة العمل البالغة الأناقة التي اعتادت أن تراه فيها، فبدت رجولته مخيفة. وتظاهرت بالاهتمام بعربة يجرها بغل كانت تنتظر لتنقل أمتعتهم، ومعظمها أمتعة هيلين، إلى الفيلا.

كان على رأس البغل قبعة قش واسعة وقد أحدثت في حافتها العريضة فتحتان ظهرت منهما أذناه الطويلتان. كان اسم السائق جيوڤاني وهو أيضاً يعتمر قبعة قش واسعة. عندما ابتسم يحييهم بدت أسنانه سوداء في وجهه الذي لوحته الشمس.

كان أسهل عليها بكثير أن تشغل نفسها بالرجل وبغله بدلاً من أن تراقب الشمس الذهبية وهي تلمع على بشرة سيزار السمراء وشعره الأسود الحالك.

ـ تعالي.

اخترق صوته أفكارها ليوتر أعصابها. لمسة أصابعه وهو يمسك بمرفقها جعلت فمها يجف. لو أغمضت عينيها لرأت صوراً له وهو يضمها ضاحكاً، وقد أشرقت عيناه، وبدا لهب المشاعر فيهما وهو يحني رأسه ليعانقها.

إنها تشعر بحبها له يثقل قلبها، لكنه تدرك أيضاً خطر ذلك. . .

صدرت عنها آهة صغيرة، وهي تهز رأسها من دون وعي، لتنفض منه تلك الأفكار. حاولت أن تبتعد عنه لكن أصابعه اشتدت، ثم، وكأنه يعرف بالضبط تأثير قربه منها عليها، بدا عليه شيء من التسلية وهو يقول: «الطريق ليست شديدة الانحدار كما ترين، يا عزيزتي. الآخرون لا يرونها صعبة. فلماذا لا تكفين عن التصرف بعناد كالأطفال؟ أم أن عليّ أن أحملك؟»

قال هذا بلهجة تهكم خفيفة، لكن قلبه كان يخفق بسرعة. أراد أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها. . . ويشعر بخفقات قلبها التي تحيره. . فبقدر ما هي قوية هذه الخفقات بقدر ما رفضها له حازم. نظرة واحدة من تينك العينين الذهبيتين الرائعتين تجعله يفقد السيطرة على وضع يسيطر عليه منذ أنهت علاقتهما! نظرة واحدة فقط! . .

لكن عينيها كانتا متعلقتين بالشخصين اللذين سبقاهما على الطريق الأبيض الذي يلف حول الرابية الخضراء. إنها تعرف الآن كيف عليها أن تتصرف لتجعله يتمنى لو لم يستعمل الابتزاز لكي يرغمها على الزواج به، فقالت بجمود: «لا تكن سخيفاً يا سيزار! أنا لا أحتاج إلى من يحملني كما لست طفلة ولا عنيدة. لقد ضجرت وحسب من الوضع الذي وجدت نفسي فيه».

شعرت بغضبه يتصاعد وهي تسير بخطوات ثابتة. الضجر لم يكن له وجود بينهما طبعاً. في الواقع كان توتر أعصابها يشحن الجو فيما قلبها يخفق وكأنها ركضت لتوّها شوطاً طويلاً. إذا نجحت خطتها الجديدة فسرعان ما ينبذها. إنه لا يريد امرأة تملأ عليه الجو تثاؤباً أو تأخذ في تقليم أظافرها عندما يقترب منها.

لقد تركته لأنها وقعت في حبه. شعورهاهذا جعلها تشعر بالضياع والوحدة، إنما كان فيه كرامة. لكنها تتوقع الآن أن تصبح عبدة لشهوات زوج لا تحبه على الإطلاق. كانت مجنونة حين ظنت أنها تحبه، كما راحت تذكر نفسها. فهي دمية اشتراها وسيلقي بها بعيداً، وهذا أسوأ بكثير.

لم يكن في ذلك أي كرامة. كل ما بإمكانها أن تفعله دفاعاً عن الكبرياء القليلة التي تبقّت لها هو محاولة جعل الوضع كريهاً مذلاً بالنسبة إليه كما هو بالنسبة إليها.

أخذ يراقبها وهي تبتعد عنه والغضب يجيش في نفسه. استدار فجأة وكأن مجرد رؤيتها ستجعله ينفجر، وأخذ يساعد جيوڤاني على وضع الأمتعة في العربة، متحدثاً إليه بلغتهما. بدا صوته هادئاً عذباً، رغم أنه ما زال يغلي في داخله.

إذن، فكرة أن تكون زوجته تضجرها!

لكنه سيعلمها درساً مختلفاً! فحين يقرر موعد الطلاق، ستتوسل إليه لكي يبقيها معه.. ستتشبث به، وتتضرع، وتعده بالأرض والسماء إن أبقاها معه... لن يكون اسمه (سيزار جيانلوكا أندربوتي) إن لم يفعل ذلك.

* * *

- كل شيء جميل للغاية! أليس كذلك يا حبيبتي؟

- نعم.

أجابت بيانكا بذلك من بين شفتين جافتين متوترين. كانت ماريا قد أعطتهما كتيّباً سياحياً في الفيلا. كل ما استطاعت بيانكا أن تتذكره هو الأرض الرخامية الباردة، والغرف الحسنة الإضاءة والتهوئة والمؤثثة بشكل لا بأس به. وها هما الآن على الشرفة التي تطل على الخليج الصغير بشاطئه الأبيض الذي تلعقه مياه البحر اللازوردية.

كانت ماريا قد أحضرت إبريقاً من العصير المثلج ووضعته على الطاولة. أدركت بيانكا أنّ عليها أن تشرب شيئاً منه لأنها عطشى لكن معدتها كانت متوترة وحلقها منقبضاً ويؤلمها. وكانت أمها قد نظرت إلى كأس العصير وكأنه سم، و بدا من لمعان عينيها حاجتها إلى الكحول.

البرفسور ڤاكاري بدا قادراً على التصرف معها، كما فكرت بيانكا. بدا في منتصف الخمسينات بشعر رمادي حليق كلياً تقريباً. وكانت عيناه لطيفتين ذكيتين كما تحيط به هالة من الكفاءة الهادئة.

نهض عن كرسيه وضغط زراً في الجدار خلفه: «سيداتي، إذا شئتن، ستأتي ماريا وتريكن غرفكن. جيوڤاني أخذ أمتعتكن إلى أعلى وروزا ستفتح الحقائب وتعلّق الملابس لأجلكن، وسنجتمع هنا خلال ساعة لتناول العشاء».

صوت البروفسور ذو اللكنة الخفيفة كان مشوباً بسلطة رقيقة فقفزت هيلين عن مقعدها بابتهاج أكثر منه رشاقة.

ـ هل نصعد يا حبيبتي؟

عندما ظهرت ماريا، مدت هيلين يدها إلى ابنتها لكن سيزار قال بلهجة قاطعة: «أنا وبيانكا سنمكث في مكان آخر... يبعد عشر دقائق سيراً على الأقدام».

وابتعد عن جدار الشرفة حيث كان واقفاً يستمع إلى ما يجري متأملاً.

رغم معرفتها بنواياه، شعرت بيانكا بوجهها يشحب وهي تواجه حقيقة وضعها. إن زواجهما هذا سري، وإذا أرادت أن تستفيد أمها من وقتها هنا فعليها ألا تدعها تشك في العلاقة ما بين سيزار وبينها وفي أنه يتوجب عليها أن تشاركه حياته لأنها زوجته.

جاهدت لتبتسم، ولئلا تكترث بقلق الأم الذي ظهر فجأة في عيني هيلين. قالت: «ربما سأراك يوماً على الغداء».

أرادت بهذا أن تعلم سيزار أنه لا يستطيع أن يملي عليها كل حركة، سواء أكانت زوجته أم لم تكن. خالطت صوتها نبرة مرح حذرة علّها تخفف من خوف أمها من أن تقع في حب شخص كالذي أحبته هي وتزوجته.

وفاضت مشاعرها فجأة، فنهضت تعانق أمها وتحتضنها بشدة، شاعرة بالألم وهي تحس بعظام أمهاالبارزة في البذلة الحديثة الطراز. الجلسات التي سيخضعها لها البروفسور يجب أن تنجح. نعم، لا بد لها من أن تنجح! وبصوت مختنق، وفي أذن هيلين فقط، قالت تطمئنها: «ستكونين ممتازة، ممتازة تماماً! صدقيني! ركزي اهتمامك فقط على الشفاء والسعادة وأنا لن أقع في غرام سيزار. صدقيني! وهكذا

لا تقلقي عليّ... أتعدينني؟»

الإيماءة الصامتة من أمها كانت كل ما تحتاجه وهي تقول: «سأراك في وقت ما غداً».

وابتعدت بيانكا وعيناها تلمعان بالدموع التي راحت تغالبها بشكل مستميت، فالتقت عيناها بعيني سيزار الحادتين غير المقروئتين.

رفعت رأسها. إذا ظنها تتصرف بهذا الشكل حباً للظهور وباندفاع صبياني، فليكن! ولماذا تهتم برأيه فيها؟ كل ما يهمها هو سعادة أمها. قالت وهي تنظر في عينيه بازدراء: «هل لنا أن نبتعد عن طريقهما؟»

تصلب جسمه قليلاً واحمر وجهه غضباً. يا الله... إنها تغضبه حقاً! تظهر له أن الخروف لا يذهب إلى الجزار بملء إرادته! رؤيتها وهي تحتضن أمها بمثل ذلك الحب جعلته يشعر بسوء تصرّفه وذلك لأول مرة في حياته. ولم يشعره ذلك بالارتياح.

أشار متوتراً إلى درجات الشرفة وقال من بين أسنانه: «إنزلي من هنا وانتظريني».

استدار لينظر إلى هيلين وجين وهما تتبعان ماريا إلى داخل المنزل، ثم تبادل بضع كلمات مع صديقه القديم البروفسور ڤاكاري بينما كان يتخلص من رغبة مخزية أجفل لها وهي أن يضع بيانكا على ركبتيه ويضربهاعلى قفاها.

فكرة استعمال العنف ضد امرأة تثير اشمئزازه ولم تخطر في باله قط من قبل. لم يعد يعرف ما يحدث له، ولماذا تثير هذه المرأة بالذات مثل هذه المشاعر العنيفة في نفسه.

* * *

سارا بصمت لعشر دقائق فوصلا إلى ساحل التلة التي تحمي الفيلا من العواصف التي يمكن أن تهب من أي مكان.

في ظروف أخرى، كانت بيانكا لتسرّ بهذه النزهة وما رأته بدءً من الأزهار البرية المنتشرة بين الأعشاب عند قدميها، وشذا الأعشاب البرية في الهواء الساكن الدافىء، وصولاً إلى المناظر السحرية للجزر البركانية البعيدة الأخرى من مجموعة «أيوليان» والتي تبدو أشبه بلطخ غامضة في البحر الأزرق. لكن رغم هذا الجمال الذي يحيط بها كله، كان شعورها لا يختلف عما تحسّ به وهي تسير في شارع خلفي في لندن تحت المطر.

حتى لو نجحت خطتها التي وضعتها والتي تقضي بأن توهمه بأن علاقتهما تافهة تسبب لها الضجر... إلا أن التوتر بدأ يتملكها إلى حد أخذ يهدد بالانفجار في أي لحظة.

وبالرغم من البرودة الخفيفة التي سرت في الجو عندما مالت الشمس إلى الأفق، راح العرق يلصق ثوبها بجسدها، ويظهر بشكل قطرات على جبينها ورقبتها. كما لم يحاول سيزار أن يلمسها، لم ينطق بكلمة واحدة. غضبه الصامت أنبأها بأن خطتها نجحت. وكل ما عليها أن تفعله هو أن تمضي قدماً بخطتها هذه.

وكان هذا شعوراً جباناً!

توقف قلبهاعن الخفقان لحظة، ثم عاد يخفق بسرعة عندما وصلا إلى مقصدهما. البيت الصغير المبني من الحجر، المختبىء خلف صخرة بركانية وسط بحر من نبات الخنشار وقرب جدول تتراقص مياهه بدا مخبأ مثالياً للعشاق.

ابتلعت كبرياءها العنيدة التي جعلتها تنافسه في الصمت وسألته بلهجة رسمية متكلفة: «ما هذا المكان؟»

كان على أحدهما أن يقول شيئاً! لم يجب للحظة فيما هو يفتح الباب، ثم ابتسم ابتسامة عابسة: «عش الزوجية والقفص الذهبي؟»

سألها ذلك رافعاً حاجبيه الأسودين، ثم أجاب نفسه بنفسه: «ربما لا».

أهدابه الكثيفة السوداء أخفت مشاعره بينما حدّقت بيانكا إليه بجمود وهي تهز كتفيها. لم تجد ما تقوله في هذه المسألة. فعلاقتهما لم تعرف الحب سوى من ناحيتها. وكيف يمكن لامرأة عاقلة أن تحب مثل هذا الوحش؟

التوى فمه وكأن حملقتها فيه بعثت قليلاً من التسلية في نفسه: «في الواقع، عاش مالك الجزيرة السابق في هذا البيت حتى مات. كان شخصاً انطوائياً، يستثمر قطعة صغيرة من الأرض في زراعة البقول والخضار وبعض الكرمة، كما كان يصطاد السمك ويقطف نبات إكليل الجبل البري ليعتاش منه. البيت يُستخدم الآن كمنزل إضافي للموظفين الإضافيين الذي نحتاجهم عندما يستعمل أفراد الأسرة وأصدقاؤهم الفيلا أثناء إجازات الخريف».

وقف جانباً لكي تمرّ أمامه وسألها: «هل أرضيت فضولك؟»

لم تجب. لم يكن بإمكانها ذلك والغصة في حلقها. خطت فوق العتبة وهي تحني رأسها لتخفي دموعها عنه.

من الغباء أن تحزن على ما كان: الأمور التي تحدثا عنها معاً، نظرات عينيه التي كانت تنبئها بسروره لوجودها معه، وبأنه يراها رائعة الجمال.

من الغباء أن تحزن على ما لم يكن حقيقياً قط، وقد انتهى على أيّ حال. أي مشاعر رقيقة كانت تحملها له ماتت منذ أخذ يبتزها. فلماذا تشعر وكأن جزءاً منها مات هو أيضاً؟

هذا غباء!

تنفس سيزار بعمق وهو ينظر إليها فيما راحت تتأمل تلك الغرفة

المستطيلة المنخفضة السقف القائمة خلف الباب الخشبي القديم، والمؤثثة ببساطة بموقد، وحوض غسيل حجري، ومنضدة وكراسي وخزانات خشبية.

ملابسها الغريبة التي يصعب وصفها والتي اختارت أن تلبسها في رحلتها، لم تستطع أن تخفي تفاصيل جسدها المغرية، أو أن تخفف من رشاقة حركاتها، كما أن تسريحة شعرها الذي رفعته أظهرت بوضوح بالغ جمال عنقها.

شدّ قبضتيه وهو يبتلع سباباً يائساً. لم يكن يريد الأمر بهذا الشكل. هذا الابتعاد القاسي كان آخر ما يريده. أراد أن يرى ابتسامتها من جديد، أن يرى شفتيها وهي تلويهما أحياناً لتظهر فرحها الغريب، يريد أن يرى عينيها وهما تتألقان على مائدة العشاء المضاءة بالشموع، أن يلمس يدها فتشتبك أصابعهما بشكل غريزي.

توتر جسده وهو يراها تمدّ يدها بحنان لتلمس أوراق زهرات برية وضعت في إناء من الفخار وسط المائدة. وقد وضعها، من دون شك، الخادم وهو يجهز البيت الحجري للسكن.

جمال الأزهار بدا غير مناسب... مجموعة من النباتات الخضراء ستلائم المكان أكثر.

تشوّق إلى أخذها بين ذراعيه، وأصبح تنفسه خشناً.

صرف بأسنانه، متجاهلاً ثقته بأن بإمكانه أن يجعلها تسحب كلماتها، وتعترف بأن أي علاقة حميمة به لن تضجرها... يا إلهي، لكنه لا يعرف الكثير عن هذه المرأة ولا يعرف كيف يمكن أن تتجاوب معه.

لكنه لم يكن يريد ذلك... لا يريد إشباع رغبته وحسب. وفجأة، ولأمر متعذر تفسيره، أراد أكثر من ذلك.

حثه جسده على التقدم، كل عضلة وعصب فيه كان متلهفاً أن يأخذ ما يعلم أنه له، بينما راح عقله يتصارع مع هذا اللغز الجديد محاولاً أن يعتبره هراء، ومشيراً إلى أنه سيخطو نحو المجهول إذا ما استمر في الاعتقاد بأنه يريد من هذه المرأة أكثر مما تصور قط أنه بحاجة إليه.

قال متجهماً رغماً عنه: «إنه ليس بمستوى الفيلا. يؤسفني أن يكون عليك أن تتقبلي عدم رفاهية الحياة هنا».

كان يعلم أن كلامه غير عادل، فبيانكا أبعد امرأة عرفها عن الدلال والجشع، لكن شيئاً ما دفعه ليلسعها بقوله هذا رغم احتقاره لفعلته تلك. ربما ما كان ليتكلم لولا رجفة يدها الخفيفة وهي ترفعها عن الأزهار والتي أعلمته أنها سمعت كل كلمة، وربما تلقتها بما تستحق من ازدراء وهي محقّة في ذلك.

- جولي في المكان وتأقلمي معه ريثما أفحص مولد الكهرباء.

وأدار ظهره لها وخرج من الباب.

وفي الخارج، جلس على مقعد خشبي، مادّاً ساقيه أمامه ومسنداً رأسه إلى الخلف على الجدار الحجري.

لا بد أن المولّد بأحسن حال. فموظفوه يتلقون رواتب جيدة لكي يضمن أن كل الأمور في الجزيرة تسير كالساعة نظاماً ودقة. لكن ما أراده هو أن يبتعد عنها وحسب ليحاول أن يحلل ما يدور في رأسه.

أراد أن يحلل تلك الحاجة المفاجئة والمربكة إلى أن يبني مع امرأة شيئاً أقوى وأكثر دواماً، من علاقة عابرة. لم يحدث له هذا قط من قبل وهو يحدث الآن، بحسب رأيه، لأنها جرحت كرامته جرحاً بالغاً، جرحاً عليها أن تشفيه بانسجامها التام معه. ليس في السرير فقط، وإنما بشيء أكثر من ذلك... أراد انتزاع الخضوع الكلّي منها. الحب، الالتزام، البقاء معاً بشكل دائم. وعند حصوله على هذه الأمور،

ستُشفى كرامته.

لوى فمه لحقارة هذه الفكرة. إنها تافهة جديرة بالازدراء! ونبذها من ذهنه، فعلى كرامته أن تعتاد العيش مجروحة بهذا الشكل.

قفز واقفاً ودس أصابعه في شعره. قرر إلغاء خطته الأولى، فهي لن تنجح. لن يرغمها على أن تشاركه سريره كما يشاء ومتى يشاء، فهذه أقسى فكرة راودته يوماً وأكثر أفكاره جنوناً. لا يستطيع أن يتصور الآن كيف خطرت له هذه الفكرة منذ البداية.

ماذا لو أن هذه الخطة الخطرة فشلت ووقع هو في الفخ ولم يعد يريد أن ينهي الأمر؟ ماذا لو كان هو من يتشوّق إلى الالتزام الكامل الدائم؟

مجرد التفكير في ذلك قلب الفكرة بأكملها... فكرة من هو وماذا يريد، رأساً على عقب. وهذا الضياع أرسل شعوراً واهناً في كيانه.

وأدرك بالضبط ما عليه أن يفعل.

علاج هيلين، تحت إشراف ماركو ڤاكاري، سيستمر. ليس لأنه جزء من الإتفاقية الظالمة ولكن لأن سيزار يريد بإخلاص أن يساعدها. إذا كانت بيانكا تواجه المشاكل فعليه أن يبذل ما في وسعه لكي يرفع هذا العبء عن كاهلها.

وبعد أسبوع، وهو الوقت الضروري لكي يستقر وضع أمها، ستصبح بيانكا حرة في العودة إلى وظيفتها في لندن، وحرة في أن تتخلص منه وإن شاءت حرة في أن تطلب الطلاق.

هذه الفكرة جعلته يشعر بمثل طعنة خنجر حاد. تنفس بعمق ليسيطر على ألم هذه الطعنة التي لم يتعوّدها ويكبحه، ثم رفع رأسه وعاد إلى المنزل.

ناداها.

لقد انتهت اللعبة الخبيثة.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ في بحر الضباب

سمعت بيانكا سيزار يناديها فتوتر جسمها على الفور وجمدت مكانها لا تسمع في الصمت الذي تلا سوى خفقان قلبها المدوّي. وابتدأ إحساس غريب ملحّ يتملّكها، جاعلاً دمها يسري حاراً في عروقها. وتحوّل تنفسها إلى شهقات قصيرة سطحية معذبة.

هل ابتدأ الأمر؟ هل حان الوقت لتؤدي دورها في اتفاقية الزواج هذه؟ تستسلم، منتظرة منه أن يصعد السلم ويأتي إليها؟

هل يعلم، تباً له، أنها بمجرد التفكير فيه وهو يضمها إلى صدره قد تتلهّف إلى الاستسلام، فتحترق وترتجف؟

هل يعلم ذلك؟ أم أنّ هذا سرّها المذلّ؟ كانت تقف متصلّبة في إحدى غرفتي النوم المؤثثتين بالطريقة نفسها: سريران تفصلهما منضدة صغيرة، خزانة أدراج وخزانة ملابس كبيرة.

رأت حقيبة ملابسها لكنها لم تجد أثراً لأمتعة أحضرها معه. إنما كانت الخزانة تحتوي على ملابس افترضت أنها تعود له: بنطلونات لمناسبات غير رسمية، بنطلون جينز بالٍ، وقمصان قطنية ناعمة. وكبحت رغبة تدفعها إلى أن تلمسها، وتمرغ وجهها بها. أغلقت باب الخزانة بسرعة ثم أخذت تحدق في المنضدة وكأنها أهم ما في العالم.

عندما ناداها سيزار مرة أخرى، تمالكت نفسها. لم تشأ أن تدعه

يأتي إليها بنفسه، فقد يظنها تدعوه إليها...

كان فمها جافاً وقلبها يخفق. خرجت من الغرفة ونزلت السلم القصير لتجده يضع المقلاة على الموقد. يبدو أن الوقت تأخر! بللت شفتيها متمنية لو تكف ركبتاها عن الارتجاف.

دفاعها الوحيد ضد قوة جاذبيته وقوة مشاعرها المدمرة، هو أن تتصرف وكأنها ترى إرغامه لها على الزواج منه إذعاناً مملاً. ولكن كيف يمكنها ذلك وهو الذي يجعل قلبها يخفق بمجرد نظرة من تينك العينين السوداوين؟

ـ آه، ها أنتِ!.

لم ينظر إليها وإنما أشعل النار تحت المقلاة ثم أضاف الملح وقال: «إنني أطهو عشاءً خفيفاً».

ثم استدار ويداه على وركيه، وإذا بكلماته المملة الخالية من المشاعر التي ستمنحها حريتها تموت على شفتيه لما رآه.

يالله، تبدو مرهقة للغاية! وجهها شاحب كالرماد تقريباً، وعيناها متوترتان للغاية، وفمها الممتلىء يخفي ارتجافاً واضحاً، ووقفتها المتصلبة تبدو دفاعية بكل تأكيد.

انقبض قلبه عطفاً. إنه السبب في حالها هذا... وكره نفسه لهذا. وقال بنعومة وبصوت أجش: «لما لا تأخذين حماماً سريعاً فيما أقوم أنا بالطهو؟ آسف لأنه لا يوجد حوض استحمام فعلينا الاقتصاد في الماء هنا».

لكنها بقيت واقفة وكأنها جمدت مكانها. أخذ ينظر إلى قشعريرة مرت في جلد ساعديها المشتبكين على صدرها ما جعله يشعر بالذنب إلى حد الغثيان. واستعمل كل ما لديه من إرادة كيلا يحتضنها مواسياً ومعتذراً لأنه أرغمها على أن تعيش هذا الوضع.

لكن لمسة واحدة ستجر لمسات أخرى. كان يعلم أنه لا مناص حينذاك من أن يستسلم لرغبة بدائية في أن يعانقها بجنون، مطالباً بما يتوق إليه كيانه...

لن يدع نفسه يفعل هذا لأن ثمة شيء مختلف الآن... شيء أعمق.

ما بينهما كان سطحياً بكل تأكيد...

ما من شيء سطحي في ما يدور في ذهنه حالياً. فهو عميق معقد يتعسّر عليه فهمه.

- إذهبي. العشاء بعد ربع ساعة.

أن يبتسم ويجد صوتاً مرحاً لا يكشف عن غليانه الداخلي، تطلب منه الكثير. لكن الأمر يستحق ذلك، فقد أجفلت، وانتفضت من حالة الغيبوبة التي كانت فيها، ثم عادت إلى السلم.

* * *

كان الحمام الصغير نظيفاً للغاية. وقد خفف الماء الدافىء شيئاً من توترها.

لفت نفسها بالمنشفة ثم اتجهت إلى الغرفة التي يبدو أنهما سينامان فيها. فتحت حقيبة ملابسها وفحصت المحتويات لتخرج أخيراً بنطلون جينز قديماً إلى حد جعله ناعماً مريحاً، وقميصاً رجالياً بسيطاً ذا لون قاتم الخضرة.

إنها ملابس للدفاع عن النفس، كما أدركت ساخرة. ولكن أتراها تحتاجها؟ ابتسامته وهو يخبرها أن أمامها ربع ساعة قبل أن يجهز العشاء ملأتها بالاضطراب. بدا وكأن سيزار القديم عاد إليها... الشاب الحساس الذي تحن إلى رؤيته... لكم تتمنى أن يعودا إلى صداقتهما

السابقة!

إن زواجها منه حماقة وخطورة بالغة، لكنها لن ترضى بأن تنتهي مثل أمها. غنيمة رجل غني، يحصل عليها بسهولة ثم يلقي بها جانباً بالسهولة نفسها، وينتهي بها الأمر بقلب ونفس محطّمين.

وبشكل دفاعي، تركت شعرها رطباً مسترسلاً على كتفيهافي خصلات عديمة الجمال، ثم نزلت السلم وأنفها تداعبه رائحة الثوم.

رأت على المائدة طبق سلطة، هو يسكب محتويات المقلاة في صحنين عندما دخلت... معكرونة بزيت الزيتون والثوم مع بعض الجبن المفروم.

أخذت معدة بيانكا تتلوى جوعاً، بينما لوى سيزار شفتيه: «مدّي يدك إذا كنت جائعة مثلي».

وابتسم وهو يسحب لها كرسياً لتجلس فبادلته ابتسامته بامتنان. أليس بإمكانها أن ترتاح لفترة قصيرة فتنسجم معه حتى يحين وقت عودتها إلى الحذر، فتتصرف معه عندئذ كما تتصرف مع عدوّ؟ إنها مدينة بذلك لنفسها. ولا سبيل لأن تدع نفسها تقع في شركه المغري.

إذا ألحّ عليها بمشاركته سريره، كما أعلن نيته من قبل، فسترغم نفسها على أن تكون كلوح الخشب. وربما ستتمكن من افتعال نوبة سعال في اللحظة الحاسمة!

نبذت هذه الفكرة بحزم ومدت يدها إلى طبق السلطة الذي قدّمه لها وهي تقول بقدر إمكانها من المرح: «بإمكاننا أن نضيف الطهي إلى إنجازاتك التي لا تحصى، أليس كذلك؟»

- المعكرونة بسيطة، يمكنني تحضيرها بنجاح. ولحسن الحظ، أعرف أنك تحبينها.

وأخذ جرعة كبيرة من الكولا التي كان يشربها وراح ينظر إليها

مفكراً وهي تأكل. قبل أن يعيد إليها حريتها، ويسمح لها بأن تترك حياته، سيحاول أن يكتشف بالضبط ما الذي جعلها جذابة ويعرف حقيقة بيانكا جي، ويعرف جوهرها.

حدثه المنطق بأن ينسى هذا. أن يتعرّف حقاً إلى المرأة التي لن يعود لها أثر في حياته قريباً هو أمر لا جدوى منه. لكن قلبه قال شيئاً آخر كلياً... سيجعل هذه الساحرة الصغيرة المغرية الغامضة تنفتح له لأن هذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة إليه، من بعض النواحي.

اهتز كيانه وهو يراها تتناول طعامه. إنه يريد هذه المرأة... يريد أن تفتح له قلبها ودفئها وأن تدعوه إليها...

لكن هذا لا يمكن أن يحدث، فهي لا تريد هذا الزواج ولا هذه العلاقة. والآن وبعد أن عاد نهائياً إلى عقله، سيدعها ترحل. ولكن أولاً، وبرفق...

- «بي»... إلى أي حد كان تأثير هجر أبيك عليك سيئاً؟

وضعت بيانكا شوكتها في الصحن. لم تكن تتوقع أن يستعمل الاسم المصغر هذا في مخاطبتها، كما لم تتوقع هذا السؤال. لكن ربما كان عليها أن تتوقع ذلك، فقد بدا لها منطقياً للغاية. على أيّ حال، لعله أنفق مبلغاً كبيراً ليحصل على المعلومات التي حرصت على إخفائها عنه. إنه يريد معرفة التفاصيل، ليتأكد من أنه أنفق ماله في الطريق الصحيح!

ما الذي ستخسره، على أيّ حال؟ لقد سبق وأخذ منها أهم ما لديها في حياتها: وظيفتها، احترامها لنفسها. كما أن شغله بالحديث سيؤخر ما لا مناص منه...

- لم يكن له تأثير على الإطلاق.. فأنت لا تفتقد ما لم تحصل عليه قط. لم أرَ من أبي أي اهتمام. لم يكتب لي أو يطلب صورة لي قط...

حتى عندما كنت حديثة الولادة، كما يبدو. طلب رؤيتي مرة حين كنت في الثانية عشرة، وكان اللقاء كارثة. لم أره أو أسمع منه خبراً منذ ذلك الحين.

- لكن تأثير الهجر كان سيئاً جداً على أمك، أليس كذلك؟

واعتدل سيزار في جلسته وهو يلاحظ أن كلامه هذا جعل جسمها يتصلب وشفتيها تتوتران: «بعض ما عانته أمك وما زالت تعانيه حتى بعد كل تلك السنوات، ترك أثراً عليك من دون شك».

- ربما. وهل هذا يهم؟

- أظن ذلك.

عادت إلى الحاجز الذي تحتمي وراءه، لكنه سيهدم هذا الحاجز ويعثر على حقيقة هذه المرأة التي كان وجودها في حياته وحده يجلب السعادة إلى قلبه.

التبرير سيؤلم كبرياء الرجل عنده. لكن بإمكانه أن يحتمل ذلك، وهو مضطر لهذا إذا أراد أن يعلم خلفيتها وماضيها.

- بسبب عدم قدرة أمك التعوّد على فكرة أنّ زوجها نبذها من أجل فتاة أصغر سناً وأكثر رشاقة، تخافين أنت من أن تلتزمي عاطفياً، مع أيّ رجل. خصوصاً رجل من نوع أبيك... رجل يكفي أن يرفع إصبعه لينال ما يريد؟

تملكها الغضب، وكرهت الشعور بأنها تخضع لمراقبة دقيقة. هذا التطفل على نفسيتها ليس له ما يبرره. فبالنسبة إليه، علاقتهما بدائية سطحية وكل ما يطلبه منها هو تلبية رغباته بأحسن الأشكال!

رفضت أن ترضيه باعترافها أن تحليله صحيح، وتحوّلت إلى موضوع آخر وهي تنظر في عينيه متحدية: «كما أتذكر، لم تطالب بأي التزام عاطفي قط. ولو ظننت أني أريد شيئاً من هذا النوع لهربت

بعيداً. لهذا لا أدري ما الذي تشكو منه!»

هذه ضربة في الصميم.

وتراقصت عيناه والتوى فمه فأخذ قلب بيانكا يخفق بجنون.

إحساسه المرهف وقدرته على فهم الآخرين والتأثير فيهم ملفتة. يكفي أن يسدّد إليها قوة عينيه التي لا تصدّق لكي يوقظ مشاعرها. لكن لو عرف لماذا أنهت علاقتهما... لضحك عليها ملء شدقيه وهرب منها ميلاً!

بدا بغاية الارتياح، وإحدى ذراعيه مسترخية على ظهر كرسيه. كان من التكاسل وعدم الاهتمام بحيث فوجئت بقوله: «إذن، فأنت تستغلين الرجال، تحركين رغباتهم من دون أن تحققي لهم مبتغاهم. وتتركينهم على الجمر يتلظون ثم ترحلين..».

- وأنت ماذا تفعل؟ تأخذ ما تريد من المرأة ثم تتركها...

هبت في وجهه تقول هذا حالما استطاعت أن تتكلم.

- لم يكن في حياتي نساء كثيرات كما تتصورين.

- وبهذا يصبح الأمر حسناً. أليس كذلك؟

هل تتخيّل، أم أن ملامحه توترت بغضب مكتوم لملاحظتها الساخرة الذكية؟ لديه كل الحق في أن يظن ذلك، لأنها هي التي تركت علاقتهما على تلك الحال.. كما جعلته اليوم يظن أنه أضجرها.

كان هذا بعيداً كل البعد عن الحقيقة، لكنه الأسلوب الوحيد الذي جعله يتراجع. الرجل صاحب الكرامة لا يقبل بأن يعاشر امرأة تراه مضجراً، وسيزار يعتدّ بكرامته أكثر من معظم الرجال.

وكأنه قرأ أفكارها، فقال ببرودة: «من الواضح أنك تحبين أمك كثيراً وتخافين عليها إلى حد وافقت معه على الزواج برجل يشبه أباك من حيث الغنى والجاه، رجل يشعرك بالضجر».

إذن فقد نجح الأمر! حسناً، هذه كانت نيتها، وهي طريقتها الوحيدة للدفاع عن نفسها. وقد آن الأوان للمضي قدماً بحيث تصل إلى غرضها، فتجرح كرامته الإيطالية وتصيبها إصابة بالغة بحيث لن يرغب قط في أن يلمسها.

ردت بنفس ببرودته نفسها: «هذا إذا وجدت نفسي في موقف صعب ولم يعد أمامي خيار آخر، والمفروض أنك تعلم هذا. فقد تزوجتك...»

قالت هذا ساخرة وقد أحال الألم في أعماقها صوتها خشناً لأنها ابتدأت تشعر برغبة في أن تكون زوجة يحبها وليس زوجة غرضه منها أشبه بغرضه من النساء الفاسقات... كانت تعلم في أعماقها أنها ما زالت تحبه: «لقد تزوجتني مع أنك لطالما أعلنت أمامي أنك مستمتع بحريتك وعزوبيتك. عندما لم تصل إلى مبتغاك مني... قلت لنفسك لا بأس بالزواج منها.. فلن يكون الزواج عائقاً إذ تستطيع أن تطلقني متى شئت أو بالأحرى متى قررت أن تحيد عن الطريق السويّ. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدتها لأستسلم لك؟».

وانتبه سيزار فجأة إلى أن وجنتيه قد احمرتا فيما انقبضت يداه حتى انغرزت أظافره في راحتيه. كانت الساحرة الصغيرة تضربه على الوتر الحساس.

في البداية، عندما طلبها للزواج... جاء عرضه فجأة ومن حيث لا يعلم لكنه لم يأتِ من عقل متزن وشعر بطعنة في الصميم عندما رفضت طلبه فقرر أن يحصل عليها مهما كلفه الأمر.. وكانت الكلفة الزواج انتقاماً منها.

استند في خطة انتقامه تلك إلى الابتزاز الذي يتعارض مع كافة المبادىء التي يتمسك بها، وذلك نتيجة رغبته الجنونية في إبقائها معه

بأي ثمن!

نهض واقفاً في الوقت نفسه الذي وقفت فيه. شعر بالغثيان، وأخذ يشتم بلغته بعنف، متمنياً لو أنه يفهم ما يدور، ولماذا استطاعت هذه المرأة أن تغضبه بهذا الشكل.

نظر بعينين ضيقتين إليها وهي تتجه إلى الباب، ثم سألها متجهماً: «إلى أين تذهبين؟»

- إلى أي مكان، بعيداً عنك.

رمته بهذا الجواب وهي تفتح الباب. إنها تريد الابتعاد قبل أن تنهار كلياً.. إنها تكره ما جرى بينهما الآن، وتحتقر نفسها حقاً لرغبتها في أن تؤلمه. فهي تحبه من كل قلبها، ووجدت نفسها فجأة تتعهد بأن تبقى معه ما دام يرغب فيها كزوجة.

كان الظلام يسدل ستاره عندما أخذت بيانكا تسير متعثرة نحو المنحدر المعشوشب خلف المنزل الحجري، عائدة من الطريق التي سلكاها منذ ساعة أو إثنتين.

كانت الشمس الآن كتلة قرمزية عند الأفق تغوص في البحر الضبابي.

تحتها، وليس بعيداً جداً، استطاعت أن ترى أضواء الفيلا. سيسهل عليها سلوك الطريق إلى هناك حيث ستطلب من ماريا أن تجهز لها غرفة تمضي الليل فيها، مخترعة عذراً لهذا الطلب.

لكن هذه طريقة جبانة لا يمكنها أن تتبعها، فهذا شيء بينها وبين سيزار، وعليها أن تفكر في الإسلوب الذي ستتبعه معه.

أدارت ظهرها للأضواء، ثم سارت ببطء إلى أن وصلت إلى فجوة عميقة معشوشبة، فجلست على حافتها التي ما زالت تختزن دفء الشمس.

لفت ذراعيها حول ركبتيها وأسندت رأسها إليهما، فانسدل شعرها وكأنه ستار قاتم يفصلها عن كل شيء ما عدا أفكارها المتوترة. أخذت نفساً عميقاً، وسالت دموعها على جانبي فمها مالحة الطعم.

لا يمكن أن تسير الأمور على هذا النحو، لا يمكن هذا. لا يمكنها أن تعلب دورها في هذا الزواج، فهذا سيلحق بها ضرراً بالغاً. فما زالت تحبه، وهذه حماقة منها. لكن الاستسلام له، وهي تعلم أن ما يشعر به ليس أكثر من رغبة بحتة... ورغبة في عقابها، والانتظار حتى يملّ منها، سيكون وكأنها ترمي نفسها في كابوس من دون نهاية.

هزت شهقة قوية جسمها النحيف فوضعت مرفقيها على ركبتيها، وضغطت أصابعها على عينيها المغمضتين بشدة. هذه التعاسة الجارفة لن توصلها إلى شيء. كانت تعلم ما عليها أن تفعل، ولهذا لا فائدة من إدعاء العكس.

كانت حقارة منها أن تستعمل خطة ملتوية لتجعله يعتقد أنها تشعر بالضجر منه. كان عليها أن تخبره بصراحة أنها ترفض أن تلعب دورها في هذا الزواج الصفقة... قد ينحط اخلاقياً إلى مستوى الابتزاز، لكنه لن ينحط إلى مستوى الاغتصاب.

أما بالنسبة إلى هيلين، فحسناً! عليها أن تجرب حظها، فمن المؤكد أن سيزار لن يطردها من الجزيرة، لأنه ليس بهذه القسوة.

فطيلة معرفتها به لم يتفوّه بكلمة قاسية ضد أي مخلوق، أو يعامل أحداً بقسوة. لم يتصرف بهذا النحو سوى معها هي فقط، وكان ذلك بعد أن جرحت كرامته.

وتمنت لو أنها لم تعرفه قط!

وانفجرت بالبكاء.

* * *

كان صدر سيزار يعلو ويهبط بسبب المجهود المتزايد، فيما التصق قميصه بظهره. كان يركض حيناً، ويتزحلق أحياناً على المنحدر المعشوشب، فهو كما اعترف بسهولة، مذعور بعد أن طاف الجزيرة بحثاً عنها. قصد الناحية الشمالية أولاً لأن المرتفعات شاهقة هناك، وحافاتها خطرة. وبما أن بيانكا وحدها والليل يقترب وهي لا تعرف التضاريس الطبيعية، فأي شيء قد يحدث.

كاد الذعر يدفعه نحو الفيلا لكي يرسل ماركو وجيوفاني للبحث عنها عندما سمع صوت شهقات تمزق الفؤاد أوقفته في مكانه، كما أوقفت قلبه لحظات لا نهاية لها قبل أن يعود فيخفق مرة أخرى.

ضوء مصباحه الكهربائي القوي كشف مكانها فدار رأسه بمزيج من الارتياح والندم. بدت أشبه بكومة جاثمة من التعاسة، فمدّ يده إليها يوقفها على قدميها لا يريد سوى أن يواسيها.

وضع رأسها على كتفه، وقد أحس بقلبه يمتلىء بمشاعر ملتاعة لا يعرف لها اسماً. ثم أحس برجفة خفيفة تتملكها، فأخذ يعنف نفسه بعنف وصمت لما فعله بها.

حسناً، لا مزيد من هذا. لا مزيد من المطالب! لن يطلب منها أي شيء سوى أن تجد السعادة: «لا تبكي يا «بي» لا أستطيع احتمال ذلك».

أخذ يتمتم بذلك بصوت ممزق، وشعرها كالحرير تحت شفتيه. وشمّ بعمق عطرها الخاص الخفيف وأرغم نفسه على أن يكبح رد فعله.

ـ أنا آسف.

نطق بذلك بصوت ثخين بينما راح قلبه يخفق خفقات سريعة بسبب قربها منه. لكن لم يكن قلبه وحده الذي يخفق بهذا الجنون... فدوي قلبها كاد يصل إلى مسمعه... إنها مثله متأثرة بقربه... ما هذا

الشعور الغريب الذي يربطهما؟

عليه أن يخبرها الآن بأنها تحررت منه ومن مطالبه الظالمة! عليه أن يخبرها الآن بذلك!

رفع وجهها لتنظر إليه علّها تدرك صدق كلامه وإخلاصه لكن الكلمات اختنقت في حلقه حين رأى النجوم تنير عينيها الرائعتين ووجهها الذي خلقه الله ليغرق الإنسان في جماله.

ـ أنا...

بدأت بيانكا تقول شيئاً لكنها سرعان ما نسيت ما هو.

ملامحه المتصلبة سمّرتها والمشاعر العنيفة في عينيه المظلمتين بأهدابه السوداء الكثيفة حيّرتها وأذابت عظامها، وجعلتها تدرك الحرارة المنبعثة من ضغط يديه القويتين على جانبي خصرها.

لم تستطع الابتعاد عنه، ولو لمسافة قصيرة، فوضعت يديها على كتفيه العريضتين. وعندما تشبثت أصابعها بعضلاته الصلبة، شعرت بصدره يتسع بتنفس سريع قبل أن يحني رأسه ليعانقها بجوع...

* * *

٦ - حلم الليل يمحوه الصباح

رحبت بيانكا بعناقه ترده بعناق مشابه وفجأة حرّكت حواسهما كلها مشاعر بالغة الروعة.

هبطا جالسين على العشب الحلو الرائحة متعلقين ببعضهما البعض بصمت ثم أخذ ينطق بكلمات إيطالية قائلاً: «بي... أنا أريدك. لا أستطيع أن أكتفي منك».

كادت النبرة الضعيفة في صوته تحطم قلبها. لقد فعلت به هذا بدفاعها الجبان عن نفسها. لقد صدّق سيزار حقاً أنه يضجرها.

لكنها تحبه أكثر بكثير من أن ترضى بأن تجرح كرامته التي هي جزء كبير من شخصيته. مشاعرها لا تحتمل ذلك.

لذا، ضمته بشغف فتأوه وهو يستسلم لأمواج المشاعر التي دمرت إرادته القوية.

لم تستطع أن تدمّر إرادته أي امرأة أخرى غيرها كما لم يكن لامرأة أخرى مثل هذا التأثير عليه قط. وكان هذا آخر ما خطر له بوضوح قبل أن ينكمش عالمه لينحصر فيها فقط. أحس في هذه اللحظات بأنها لا تشعر أبداً بالضجر منه فقد كانت مشاعرها تماثل مشاعره التهاباً.

سألها بصوته المثير: «هل هذا يضجرك يا حبيبتي؟».

- لا!

وانهارت كل دفاعاتها. أدركت أن الكذب على الرجل الذي تحبه، في محاولة منها لأن تؤلمه، هو أكثر الأمور التي قامت بها في حياتها خزياً. لقد عرفت مسبقاً أنه سيؤلمها في النهاية لكن عليها أن تتعلم كيف تواجه هذا الألم في حياتها. حبها له سيدمّرها بشكل لا تطيق التفكير فيه، لكن التظاهر بالأمان وادعاء عدم المبالاة هو تصرف حقير.

* * *

كان الفجر على وشك البزوغ حين دفعت بيانكا شعرها عن وجهها، وقد شعرت بقلبها ممتلئاً حناناً ورقة بالغين.

يا إلهي كم تحبه! وستبقى معه بقدر ما يريدها أن تبقى، ولن تطلب منه شيئاً مقابل ذلك، لا شيء يمكن للمال أن يشتريه. ستدع حياتها تصبح جزءاً من حياته طوال مدة الزواج التي يرغب فيها سواء طالت أم قصرت.

عندما انتصب جالساً وحرك عضلات كتفيه الرائعتين، وأدار ظهره لها، قالت بمرح وعيناها تتألقان حباً: «قضاء السهرة تحت النجوم، أمر لا مثيل له، لكنني أظن أن الوقت حان لكي ننتقل من هنا».

مدت يدها لتلمسه، لتؤكد مشاعرها وإذا بالتألق يبهت في عينيها عندما تراجع مبتعداً، وأشاح بوجهه عنها ما أشاع البرودة بينهما.

ارتجفت في هواء الفجر المنعش وحبست أنفاسها تكبح صرخة عدم تصديق للطريقة التي ينبذها بها، ثم هبّت واقفة بينما كان هو ينتظرها وقد توتر فمه.

عندئذ، التفت إليها بنظرة باردة: «جاهزة؟ ثمة طريق قصيرة للعودة. اتبعيني وانتبهي لخطواتك».

أهذا كل ما لديه ليقوله؟

تبعته وقد انكمش قلبها ببرودة مخيفة. لقد انتهى الأمر... لقد انتهى منها بعد أن كشفت له مشاعرها... هل هذا ما هو عليه الأمر؟ أم أنّ السبب هو مواجهاتها الحادة معه منذ طرح شروطه؟

هل هذا هو عقابها؟ ما يريده ثمناً لما يقدّمه لأمها؟ يستعملها عندما يحتاج إلى إشباع شهوته، ثم يتجاهلها بقية الوقت؟

وهل من الممكن أن يكون بهذه البرودة وانعدام الشعور؟

ـ سيزار... انتظر.

كانا ينحدران عن التلة. وهي، كالخادم الوفي، تتبعه على بعد ثلاث خطوات. كان الصمت الهش بينهما مناقضاً تماماً لهدير البحر الخافت وخرير الجدول، وزعقة بعيدة موحشة لطائر النورس.

وقف. انتظر قد خلا وجهه من أي مشاعر: «نعم؟».

كانت تلهث قليلاً، بسبب مزيج من الخوف والغضب لمعاملته لها بهذه الطريقة المذلّة. وضعت يديها على وركيها وسألته متهورة، مصممة على اختراق هذا الحاجز الذي وضعه بينهما بأي ثمن: «ماذا حدث؟ أتصور أنك كنت لتعامل امرأة مومس باحترام أكبر مما تعاملني به».

خرج هذا التعنيف من بين أسنانها كالفحيح، لكنه لم يؤثر فيه إنما زاد توتر فمه، قبل أن يقول بجفاء: «لا أدري! لأنني لم أحتج إلى خدمات مومس قط».

ثم أسرع بسيره، من دون أن يضيف أيّ كلمة أخرى.

تبعته وهي تكبح رغبة تدفعها إلى الصراخ خلفه. الحب سيؤذيها لكنها لن تهرب منه مرة أخرى. سترغمه على أن يفسر تصرفه، وإذا كان هذا هو ما ستصبح عليه علاقتهما هنا فهي إذن ستخبره رأيها فيه بصراحة.

قد يشغلها حبها له ليلاً نهاراً لكنها لن تقبل أبداً بأن يعاملها كمتشردة لا يحسب لها حساباً!

كانا يقتربان من المنزل الحجري إنما من ناحية معاكسة للناحية التي جاءا منها في الأمس، ما يعني اجتياز جدول الماء. وقف ينتظرها هناك عند لوح خشب طويل يقوم مقام الجسر، وقال باختصار: «لا يوجد حاجز للتمسك به، والخشب أصبح زلقاً. هاتي يدك... لا، لديّ فكرة أفضل».

وانحنى ثم حملها بين ذراعيه وسار على اللوح الخشبي الزلق وكأنه يسير على طريق ممهد جيداً.

تمسكت ببانكا بكتفيه والخوف في داخلها بينما الجسر الضيق يتمايل ويتأرجح تحت ثقلهما. لم تتشبث به لأنها ظنت أنهما قد يسقطان في البحيرة العميقة المليئة بالصخور، بل بسبب الطريقة التي كان يحملها بها، والتي تشبه حمل كيس بطاطا عليه أن ينقله من مكانه. بدا ما يفعله وكأنه عمل خفيف مزعج بينما جسدها متلهف إليه.

عندما أنزلها على قدميها عند عتبة الباب الذي يبدو أنه نسي أن يغلقه حين خرج للبحث عنها، سألته متوترة: «تحدّث إليّ سيزار. أنت مدين لي بذلك».

نظرت إلى عينيه غير المقروئتين. بدا لها رجلاً غريباً متحفظاً قاسياً صلباً. وضعت يدها على عنقها حيث كان نبضها يخفق بعنف، وتمنت لو يقول شيئاً... أي شيء.

لا بد أن ثمة تفسير لتصرفاته هذه. المشكلة هي أنها كانت واثقة من أنها تعرف ما هو.

ـ طبعاً. في ما بعد.

منحها هذا التنازل لكنه لم يمنحها أي أمل في نتيجة يمكن أن

تتقبلها. ما كان يجب لليلة الماضية أن تحدث، كما حدثت نفسها بتعاسة. زادت الأمور سوءً وزادت من تعلق قلبها به.

كان عليها أن تلتزم بفكرتها الأولى وهي أن تدع سيزار يتراجع. لكن الوقت فات الآن، فقد كرهت فكرة إيذائه وتحقيره وجرح كرامته. انتصر الحب لكنه تركها هي الخاسرة.

نظرت إليه بتعاسة وهو يدخل المنزل، وكتفاه بصلابة النظرة التي رمقها بها ثم قال: «أنا بحاجة إلى الاستحمام أولاً. هل لك أن تحضري القهوة؟»

ارتجفت بيانكا متشنجة. علاقتهما، التي خشيت أن تتطور إلى علاقة قوية، تحولت إلى حب كبير. وعندما رأت الخطر أمامها، كافحت لكي تخرج من هذا السجن. والآن استحال الأمر إلى مرارة، فمعاملته لها هذا الصباح دعمت كل ما كانت تعرفه مسبقاً.

ليس لدى سيزار أندريوتي وقت للالتزام، ولا مكان في قلبه للحب. إنه، ببساطة، لا يؤمن بوجود الحب. وبحزن ووهن راحت تحضّر القهوة.

* * *

عندما غادر سيزار الحمام، ارتدى بنطلوناً مريحاً وقميصاً أسود. وداعبت أنفه رائحة القهوة العبقة فانقبض قلبه.

كانت الليلة الماضية غلطة كبرى. عندما استسلمت له... كره فكرة أن تستسلم له لأنها كانت تلعب دورها في هذا الزواج الصفقة الذي فرضه عليها...

لكنها على الأقل أثبتت أنها كاذبة، فهو لا يضجرها! وعدم الاكتراث لم يكن السبب الذي دعاها إلى إنهاء علاقتهما، مهما ادعت

ذلك.

وفجأة سحق بقدمه شيئاً بعنف، وقتى مشاعره إزاء إحساسه بالبهجة والزهو عندما تذكر الليلة الطويلة الحافلة. لن تتكرر بعد الآن... انتهى كل شيء!

وجمدت عيناه واتجه نحو السلم وهو يحدث نفسه بحزم، أنه مهما كانت أسبابها الحقيقية، فلا شك أنها تراها قوية، ولا يحق له أن يطلب منها الاستمرار في هذه العلاقة، فقط لأن انتهاء علاقتهما تركه في حالة غير عادية وغير مريحة من الشعور بالهجران.

عندما دخل الغرفة وجدها تسكب القهوة. تمتم باسمها في سَره... بيانكا! هل هي ضراعة؟ حنين إلى شيء لم يستطع أن يدرك ما هو؟

زمّ شفتيه. سينسى ذلك، مهما كان! سيطلّقها وبعدئذ سيبحث عن امرأة أخرى، إذا أراد. لكنه الآن وفي هذه اللحظة، لا يستطيع أن يتصور أي امرأة مكانها.

وسينسى هذا، أيضاً!

- رائحة القهوة جيدة.

ورسم ابتسامة باهتة على فمه. يا للمسكينة «بي»! لا عجب في أنها عنّفته بحدة بسبب معاملته لها كمومس! لكن الابتعاد عن بعضهما البعض كان ضرورياً، وجوهرياً... وما زال.

الصحبة الحميمة والضحك والممازحة، وإغاظة أحدهما للآخر... ذلك كان سيسلبه كل ما لديه من إرادة بينما هو بحاجة إلى كل ذرة منها إذا أراد حقاً ولو متأخراً، أن يصلح الخطأ الذي ارتكبه.

نظرت إليه بسرعة فانقبض قلبه. بدت له مرهقة. بيانكا جي، الأنيقة على الدوام، الهادئة المحنكة، بدت مختلفة فالعشب يلتصق

بشعرها المشعث، وثيابها التي تشبه ملابس العمال قذرة وغير مرتبة. أما عيناها الكبيرتان المتألقتان دوماً فيملأهما الحيرة والألم.

شعر برغبة لا تقاوم في أن يقترب منها ويأخذها بين ذراعيه ويخبرها أنها تبدو حلوة للغاية حتى تعود فتبتسم له مرة أخرى.

لكنه كبح هذه الرغبة بكل ما لديه من إرادة، وأخذ أحد فنجاني القهوة وابتلع جرعة كبيرة هو بأمس الحاجة إليها، ثم نظر إلى ساعته وقال بجمود: «عليّ أن أذهب كي أصل إلى لندن اليوم. أقترح أن تنتقلي إلى الفيلا لعدة أيام لتطمئني إلى أن وضع أمك قد استقر. كنت لأعرض عليك أن تمكثي قدر ما تشائين لولا أنني أعلم أنك متلهفة للذهاب إلى وظيفتك».

نظر إلى ساعته مرة أخرى، ثم إلى الخارج... سيفعل أي شيء لكي يمنع نفسه من النظر إليها ورؤية الحيرة المؤلمة على ملامحها المعبرة: «سأستعمل الهليكوبتر طبعاً. لكن عندما تستعدين للرحيل، سيرسل ماركو جيوڤاني معك في المركب ليأخذك بحراً إلى «باليرمو». ثمة طائرة يومية إلى لندن».

ـ ماذا تقول؟

تلفظت بيانكا بهذه الكلمات بشق النفس. شعرت بأنها تختنق، فجلست بصعوبة بعد أن شعرت أن ساقيها تكادان لا تحملانها.

تفحصت وجهه لترى ما يشير إلى الرقة... لكنها لم تجد شيئاً. كانت ملامحه الوسيمة المرهقة جامدة تماماً، وبدا وكأنه لن يبتسم مرة أخرى أبداً. أو ليس لها على الأقل.

عندما بللت شفتيها الجافتين بلسانها أشاح بوجهه وأجاب بخشونة: «قلت إنك حرة ويمكنك الرحيل. لقد أرغمتك على الزواج بي وأنا أحلك من هذا الزواج... كان ابتزازي لك لكي تتزوجيني عملاً

غير شريف ومثيراً للاشمئزاز. لقد أردتِ أن تنهي علاقتنا لكنني لم أشأ ذلك حينذاك. لكن هذا ليس عذراً لأجبرك على زواج تكرهينه وأنا أعتذر منك وأمنحك أمنيتك وحريتك. لقد انتهى ما بيننا».

ومن دون أن ينظر إلى عينيها، أومأ برأسه ثم أسرع خارجاً.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ سرٌ في العينين

ـ لماذا لا تنتقلين للإقامة معنا؟ نعيش برفاهية ويمكنني أن أراك مدة أطول من تلك العشر دقائق التي تخصصينها لنا كل صباح. ستكونين رفيقة جين، كما لن تشعري بالوحدة بعد رحيل سيزار. أرجوك لا تخبريني أنه سيغير رأيه ويعود، وإلا فأنت تخدعين نفسك. فقد قال إن زيارته القادمة ستكون مع إجازة أسرته في نهاية الصيف.

حوّلت بيانكا نظراتها كارهة عن المشهد الذي تطل عليه الشرفة حيث مياه البحر المتألقة تتراقص فوق الشاطىء ليتحطم الزبد بعدئذ على الحصى، ثم عادت بانتباهها إلى أمها.

ـ لأنني لا أريد أن أتواجد أثناء وجودك مع البروفسور.

لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لعدم رغبتها في الانتقال إلى الفيلا فمنذ رحيل سيزار منذ ثلاثة أيام وهي تشعر بالتعاسة، ويمنعها حزنها ومشاعرها المرتبكة المشوّشة من أن تبقى هادئة أكثر من عشر دقائق. وهي لا تصلح رفيقة لأحد.

حركت قهوتها وقالت بابتسامة مصطنعة: «أنا أحب أن أرعى نفسي وأهتم بشؤوني. أجلس في الخارج هرباً من الحرّ وأنتظر جيوڤاني الذي يحضر مؤونة جديدة كل صباح. هذا الصباح أحضر طائر السلوى، وسأستمتع بتعلم تحضيره».

فقالت هيلين بجفاء: «حقاً؟».

لم تتأثر قط ببهجة ابنتها التي عادت تقول: «الأمور على ما يرام من ناحيتي».

ثم أسرعت تغير الموضوع: «كيف تسير الأمور مع البروفسور؟».

كانت واثقة من أنه يعرف ما يفعل فالارتياح الذي يبدو على أمها لم يسبق لبيانكا أن لاحظته عليها. فبدلاً من العبث بقلق بشعرها وحليّها، واللعب بملعقة الشاي، أصبحت يداها الآن مطويتين في حجرها، مرتاحتين فوق ثوبها الأزرق القطني: «ماركو، هذا اسم البروفسور. يدفع الناس أموالاً طائلة ليدخلوا عيادته الخاصة. هل كنت تعلمين ذلك؟ على أيّ حال، انسجمنا معاً بشكل ملحوظ. إنه يجعل من معه يشعر بالاسترخاء. إننا نذهب معاً في نزهات على الأقدام، ونتحدث أحياناً، وأحياناً نجلس فقط ونصغي إلى الموسيقى».

ـ هذا حسن.

ماذا يمكنها أن تقول غير هذا؟ من الواضح أن البروفسور ڤاكاري يمارس لعبة رقيقة حلوة للغاية. ربما يريد أن تكون مريضته مسترخية للغاية جسدياً قبل أن يجعلها تواجه صدمتها بشجاعة وبالتالي يجعلها تتمكن من أن تتجاوزها.

كانت هيلين تجتاز اختباراً من دون أن تعلم وليس من التعقل أن تتعمق في موضوع سيزار، فأخذت تفكر في شيء تقوله لإبعاد أمها عن موضوع اختفائه: «أين جين هذا الصباح؟».

تأوهت هيلين بفروغ صبر: «تطوف في الأنحاء. إنها غير معتادة على أوقات فراغ. اقترح ماركو أن تشغل نفسها بجمع الأزهار البرية في الجزيرة ثم تكبسها وتجففها. خرجت بعد الفطور وهي تعتمر أسخف قبعة شمس رأيتها في حياتي. في الواقع، أفكر في أن أطلب منها أن

تعود إلى بيتها حين ترحلين أنت. هذه الإجازة لا تفيدها، فهي لا تأخذ حمام شمس ولا تسبح لأنها، كما تقول، كبيرة في السن وبدينة بالنسبة لهذه الأمور. وهي قلقة على الدوام لأنها تركت بيتها خالياً. أنا حقاً لا أفهم لماذا دُعيت لمرافقتنا منذ البداية».

ـ قال سيزار إنها ستكون رفيقة لك هنا عندما تستقرين.

لم تعرف أنها وقعت في الشرك وأثارت موضوعاً لا تريد إثارته إلاّ حين نظرت إليها أمها بعينين ضيقتين وقالت بجفاء: «وأنت، يا حبيبتي؟ من الواضح أنه يفترض فيك أن تكوني رفيقته، وإلا لماذا أبعدك إلى ذلك الكوخ الحجري؟ ولماذا رحل بعد أربع وعشرين ساعة فقط؟ هل هو يتملّص منك؟».

التشكيك في دوافع الرجال أفسد حياة أمها على الدوام. وهيلين تتلهف إلى تزلف الرجال وتملقهم لأن ذلك يدعم ثقتها بنفسها التي اهتزت منذ تركها والد بيانكا من أجل عارضة أزياء أصغر سناً منها. لكنها لم تثق قط بأيّ شخص لكي تمنحه قلبها الذي لا يزال مشغولاً بشعور هو مزيج من الحب والكراهية لزوجها السابق.

ابتلعت بيانكا ريقها. حان الوقت لكي تخبر أمها بما تريد أن تسمع، لكنها لن تخبرها بمسألة زواجها من سيزار وأسباب هذا الزواج لأن ذلك سيحطمها...

رفعت فنجانها وشربت محتوياته لكسب الوقت. كرهت أن تعترف بالحقيقة لأمها. لكي تحمي نفسها من تحطم مشاعرهاأكثر أرادت أن تنهي ما بينها وبين سيزار، أليس هذا ما حصل؟ فلماذا إذن تخاف من النطق بذلك؟

قالت بما استطاعت من هدوء: «أنت على صواب. كانت بيننا، أنا وسيزار، علاقة لكنها انتهت الآن».

وارتجفت يدها التي وضعت الفنجان على المائدة، فتمنت ألاّ تلاحظ أمها ذلك.

وتقلصت معدتها فأصبحت كالرصاص. أثناء الصمت القصير الذي ساد، ركزت انتباهها على همس البحر، وزعقة طائر النورس وعلى حرارة الشمس على ذراعيها العاريتين وما أظهره السروال القصير من ساقيها.

حاولت أن تركز انتباهها على أي شيء لكي تمنع نفسها من البكاء فتدعم بذلك مخاوف أمها من أن يعيد التاريخ نفسه.

مالت هيلين إلى الأمام: «وهل أنت سعيدة لذلك؟».

أرغمت نفسها على مواجهة عيني أمها. ولأنها لم تستطع أن تبتسم، هزت كتفيها وهي تخرج نظاراتها الشمسية من جيبها الخلفي وتضعها على عينيها: «لم تكن علاقتنا جادة قط».

ابتسامة الارتياح على وجه أمها أزالت تجهم الشهور القليلة الماضية وأظهرت مجدداً الجمال الذي عرفه يوماً: «لا بأس إذن... إذا كنت واثقة من ذلك، يا حبيبتي».

ومدّت يدها فالتمعت الشمس على خواتمها. أخذتها بيانكا فيما تابعت الأم تقول: «أنا شاكرة جداً جداً لسيزار. لا تظنيني لست كذلك. فقد كان أكثر من سخي. لكن كان عليّ أن أحذرك منه. هل هو في الثلاثينات؟... الأربعينات؟ وغير متزوج وثري للغاية ووسيم. هذا يضعه في الفئة الثانية».

شعرت بتسلية شبيهة بالهستيريا لفكرة أن يصنف أحد سيزار في فئة ما جعلها تبتسم لأول مرة منذ تركها سيزار. وسألتها صارخة: «فئة ثانية؟».

فأجابت هيلين بلهجة لاذعة: «فئة الرجال الذين يفضلون الموت

على الزواج، لديهم المال والوسامة لجذب من يريدون من النساء في لحظة ثم ينبذونهن عندما يذوي جمالهن. وعندما يتزوجون يفعلون ذلك في أواخر الستينات من عمرهم عندما تضعف طاقتهم ووسامتهم، فيستعملون أموالهم ليشتروا فتيات رائعات لتعزيز ثقتهم بأنفسهم والعناية بهم في سنوات غروبهم».

- يا للسخرية!

هتفت بيانكا مؤنبة وهي تجذب يدها من قبضة أمها ثم تدعك أصابعها المسحوقة خفية تحت المنضدة، محاولة أن تتجاهل الغصة المؤلمة في حلقها، فقد عرفت أين تكمن الميزة القاتلة في شخصية هيلين.

ثم سألتها على سبيل التسلية: «والفئة الأولى؟»

- إنه الرجل الذي تزوجته، أبوك. الرجل الذي لا يرتاح أبداً من البحث عن الزوجة الغنيمة الأصغر والأجمل.

تملك بيانكا الحذر عندما لاحظت نبرة المرارة المعتادة. فقالت برقة: «كان ذلك منذ وقت طويل. يجب أن تحاولي أن تتجاوزي ذلك. التفكير دوماً في ذلك يجعلك تعيسة».

توتر فم هيلين: «من السهل أن تقولي ذلك لأنك لا تعرفين ما تتحدثين عنه. إذا عرفت الحب يوماً، وأنا أعني الحب الحقيقي، فستدركين أن النسيان ليس سهلاً. وعندما تحبين تأكدي من ألاّ تحبي «زير نساء». ابحثي عن رجل عادي طيّب يبقى على حبك عندما تنحنين ويتغضن وجهك».

وصل البروفسور ڤاكاري وماريا في أثره تحمل صينية القهوة ما منح بيانكا عذراً لتقف على قدميها. لقد أدركت الآن مدى صعوبة النسيان!

- لا تدعيني أبعدك من هنا يا عزيزتي.

ابتسامته الواسعة شملت المرأتين وهو يجلس معهما إلى المائدة. لكن بيانكا تراجعت لتخرج قائلة: «سأبحث عن شاطىء هادىء لأسبح... من الأفضل أن أستغل جمال الجزيرة أثناء وجودي هنا».

- آه، طبعاً. طلب مني سيزار أن أهتم بسفرك عندما تقررين ذلك، وسأكون شاكراً لو أبلغتني قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة.

قال هذا وهو يبتسم شاكراً لماريا التي وضعت القهوة أمامهم.

قالت هيلين وهي تسكب القهوة له: «لا ترحلي بسرعة يا حبيبتي. الوكالة لن تفلس إذا غبت عنها أسبوعين، وشاركينا العشاء الليلة. وعد؟ فأنا لا أراك كثيراً».

- سأطهو طائر السلوى الليلة. هل نسيت؟ ربما غداً.

قالت بيانكا هذا بسهولة. فبعد نصف ساعة على الأكثر، ستتلاشى قدرتها على أن تبدو مسترخية ومن دون همّ.

ربما غداً ستتمكّن من استعادة سيطرتها على مشاعرها فتستطيع سماع اسم سيزار من دون أن تشعر بالتعاسة أو تسيل دموعها ويتملّكها الشعور بالخسارة. هذا ما أخذت تحدث نفسها به من دون أمل كبير وهي تدور حول الفيلا وتتوجه إلى داخل الجزيرة.

لم تشأ أن تتسبب لأمها بأيّ قلق فيما رحلة شفائها الطويلة لا تزال في مرحلتها الأولى. ستشكر سيزار على الدوام لأنه أعطى أمها هذه الفرصة، حتى لو كان الثمن الذي طلبه في البداية كبيراً بشكل قاسي، ولعل أصعب جزء منه هو كيف لان أخيراً وأدرك مدى خطأه واعتذر.

أكدّ لها هذا أنه صاحب مبادىء، وهذا لم يفعل سوى أن زاد من حبها له.

لكن أن تحبه هو آخر شيء تريده.

وقفت بيانكا تحت الدوش، عندما شارف النهار الطويل الحار على نهايته، وأغمضت عينيها بينما الماء يغسل جسدها المتعب من الرمل والملح.

كانت قد استكشفت كل إنش من الجزيرة وسبحت في أكثر الخلجان التي وجدتها عزلة. وتأملت البحر، متسائلة كيف يمكن لمثل هذا المكان الرائع أن يصبح أشبه بالجحيم. لكن الأمر لن يطول فسترحل آخر هذا الأسبوع. غداً ستطلب من ماركو أن يقوم بإجراءات سفرها هي وجين.

عندما التقت خالتها التي كانت تسير مجهدة في طريق عودتها إلى الفيلا قرابة الظهر، لاحظت التذمر على ذلك الوجه الأحمر تحت قبعة الشمس الغريبة الشكل، وثوب النايلون غيرالمناسب، والكاحلين المتورمين وحذاء السير الثقيل. وسألتها بعطف: «يبدو أنك بحاجة إلى شراب بارد. كيف الحال؟»

ـ لا تسأليني!

ولوّحت بمجموعة من الأزهار الذابلة تحت أنف بيانكا: «كنت أجمع الأزهار البرية كطفلة! كنت متشوقة لهذه الإجازة... لكني لم أكن أعلم أني لن أفعل شيئاً، فلا متاجر ولا مقاهي صغيرة حيث يمكنني الجلوس. هيلين تمضي معظم وقتها مع البروفسور، وهذا طبيعي، ولهذا هي لا تحتاج إلى صحبتي وأنت تتصرفين وكأنك ناسك! ما كان الأمر ليصبح بهذا السوء لو أمكنني أن أكون نافعة في الفيلا. لكن ماريا لا تقبل. ثمة جيش من الخدم لنا نحن الثلاثة فقط. ولا أحد منهم يتكلم أكثر من كلمتين باللغة الإنكليزية، ما عدا ماريا، التي لا تظن أنه من المهم أن تتحدث إلى الضيوف. ويوغو قائد طائرة الهليكوبتر التي استقلها سيزار أندربوتي، لا يهمه سوى مغازلة الخادمات. كما أنه

المسؤول عن تأمين المواد الغذائية. وقد يعود الآن في أي وقت، ليوزع ابتساماته مبدياً وميض أسنانه البيضاء ومسيطراً على كل الفتيات المقهقهات»!

كتمت بيانكا ابتسامة. يبدو أن جين تشعر بالضجر هنا، كما لا يعجبها يوغو. فقالت وقد خطرت الفكرة في بالها في اللحظة نفسها: «سأعود إلى لندن في نهاية هذا الأسبوع. فهل تودين أن تأتي معي؟».

كان عليها أن تمضي مزيداً من الوقت مع خالتها، كما أدركت وقد تملكها شعور بالذنب، بدلاً من أن تختبىء بعيداً لتداوي جراحها. حان الوقت لتمضي قدماً في حياتها وتكفّ عن البكاء على الحبيب الضائع. فهي لن تدع نفسها تتبع الخطوات التي دمّرت أمها.

الآن، وفيما هي تنشف نفسها بمنشفة كبيرة، قررت أن تتوجه إلى الفيلا حالاً وتطلب من ماركو أن يقوم بترتيبات السفر لها ولخالتها.

لن تكون أمها راضية إذ أرادت منها أن تبقى بقربها أسبوعاً آخر على الأقل. لكن عليها أن تهتم بحياتها الخاصة... وبالحطام المتناثر الذي عليها أن تجمعه، لقد أصبحت أمها على مرّ السنين تعتمد عليها عاطفياً وفي الأمور اليومية أيضاً.

سيكون في انفصالهما ذاك لوعة، بيانكا تعلم ذلك. ولكن إذا أرادت هيلين أن تتقدم صحياً فعليها أن تتعلم الوقوف على قدميها، وأن تتحمل مسؤولية حياتها. لن يكون هذا سهلاً بالنسبة لأي منهما، فالعناية بأمها كانت جزءاً من حياتها.

في غرفة النوم التي كان من المفترض أن تشارك سيزار فيها، تناولت قميصاً بلوني القشدة والكهرمان من دون أكمام وحذاءً بأربطة وتركت شعرها القاتم منسدلاً على كتفيها واكتفت بوضع بعض الكريم المرطب على وجهها. قررت أن هذا أمر يكفي لزيارة مسائية مبكرة.

لن تمكث طويلاً. ستقدم طلب الرحيل فقط ثم تعود هائمة في الأنحاء لتقرر ما إذا كانت ستزعج نفسها بطهي طائر السلوى.

وفيما هي تغادر البيت الحجري الصغير، سمعت صوتاً واضحاً لهليكوبتر، فانتفض قلبها، ثم عاد ليستقر في مكانه مع استمرار الخفقان المتسارع.

لا بد أنه يوغو وقد عاد من صقلية، ولعله أحضر معه تموينا طازجاً.

ما الذي جعلها تتمسك، ولو لحظة، بأمل في أن يكون القادم هو سيزار؟

أخذت عدة دقائق لتستعيد أنفاسها، ثم راحت تعنف نفسها لتلك اللحظة من الأمل.

أرادت الابتعاد عنه نهائياً فمنحها ما ترغب فيه أخيراً. فما هذا الغباء الذي يدفعها إلى رؤيته مرة أخرى؟ يكفي الألم الذي يعتصر قلبها الآن، فلماذا تزيده حدّة؟

بعد ذلك التفكير العقلاني، تمالكت نفسها وبدأت تسير متمهلة على الطريق لأنها لم تشأ أن تواجه أمها وهي بهذه الحالة من الاضطراب. فهي حساسة جداً في ما يتعلق بابنتها.

لم تجد لها أثراً. صعدت الدرجات المؤدية إلى الشرفة حيث سيتناولون العشاء، فرأت المائدة مجهزة لثلاثة أشخاص. غطاء وفوط من الكتان الممتاز، وفضيات ثمينة، وشموع مضاءة.

يبدو أن الشاب المليء بالحيوية، الذي يرتدي بنطلوناً بلون القشدة وقميصاً أسود، هو يوغو. لاحظت أنه لم يرفع بصره عن الخادمة ذات الغمازتين التي تضع على المائدة إبريق ماء بارد.

هبّ يوغو واقفاً حالما شعر بوجودها ورأت اللمعان العنيف في

عينيه السوداوين وهو يتقدم نحوها ويرفع يدها بحركة بطيئة متعمدة ثم يقبّل أصابعها ويقول بإنكليزية ثقيلة اللكنة: «كيف يمكنني أن أساعدك؟ هل ستتعشين مع أسرتك؟ أرجو ذلك. امرأة جميلة مثلك يجب ألاّ تخفي نفسها عن العيون».

كبحت ضحكة ساخرة، وقالت: «لن أبقى هنا. أريد أن أتحدث فقط إلى البروفسور».

لا عجب في أنه لم يعجب خالتها المتحفظة. فكرت في هذا وهي تراه يصرف بيده الخادمة التي بدا عليها الفضول. كان بالغ الوسامة والغرور، وهو بالنسبة إليها، شخص تافه مضحك. وتساءلت كم من المرات وقف أمام المرآة يتمرن على هذه الابتسامة المائلة التي يريد بها الإغراء والتي تظهر أسنانه كبيرة رغم بياضها.

حاولت أن تسحب يدها من قبضته لكن أصابعه اشتدت عليها وهو يقول بصوت أبحّ: «لو كنت زوجتي، لأخفيتك أنا أيضاً عن العيون. لكنني ما كنت لأتركك!».

كان هذا أكثر من مجرد مزحة! وفتحت فمها لتقول له هذا، لكن فمها بقي مفتوحاً من دون ينطق. فقد توتر حلقها بفعل الصدمة.

دخل سيزار من باب الشرفة والبروفسور في أثره، وكان يرتدي بذلة عادية تبنية اللون، وقميصه الداكن مفتوح عند العنق. بدا رائعاً. وسرت الحرارة في عروقها ومنعتها صدمة رؤيته مرة أخرى من التنفس.

تصلبت ملامحه توتراً وضاقت عيناه وازدادتا قتامة وهو يصب غضبه بالإيطالية على يوغو الذي تصلب مكانه وترك يدها وكأنها جمرة وهو يتمتم بضع كلمات باللغة نفسها، كلمات بدت وكأنها دفاع عن النفس قبل أن يغادر الشرفة ليتوارى خلف المنزل.

لا بد أنه جاء بالطائرة مع يوغو، كما أخذت تفكر، ولكن بالتأكيد

ليس سعياً إلى صحبتها. وارتجفت وهي ترى الغضب على فمه وقد توهجت وجنتاه.

ثم تمالكت نفسها. سبب عودته ليس من شأنها، فهذه جزيرته، وبيته، وهي الدخيلة هنا.

حوّلت عينيها عن عينيه اللتين أصبحتا مثقلتين بالغضب، ثم سمرتهما على البروفسور الذي حاول أن يخفي ابتسامة واسعة خبيثة، وتنحنحت وقالت: «أنا وخالتي نرغب في الرحيل..».

لم تكمل كلامها لأن ابتسامة ماركو ڤاكاري اختفت وهو يلقي نظرة جانبية طويلة على سيزار الغاضب ويجيب: «سبق وأخبرتني جين بما تنويانه ونحن نتصرف الآن. لكن مع الأسف ما من حجز قبل يوم الإثنين وأرجو أن ألاّ يضايقكما هذا».

يا الله! خمسة أيام بدلاً من يومين كما ظنت. لهفتها للعودة إلى حياتها الطبيعية جعلتها تصرف بأسنانها. يبدو على الأقل أنهم لن يعيدوها بطائرة الشركة، فهي لا تريد أن تكون مدينة لسيزار بأكثر مما سبق. فقالت برقة: «ما من مشكلة طبعاً. لا بد أنك تحتاج لبطاقة حسابي في المصرف!».

ـ لقد حسم الأمر.

أينما تحوّلت ازداد ما تدين به لسيزار. رفضت أن تنظر إلى سيزار الذي كان يثقب ظهرها بنظراته المحرقة التي شعرت بها ولم تشأ أن تراها. وأخذت تنظر إلى البروفسور وهو يطوف حول المائدة وتساءلت عما جعله يجد هذا الوضع مسلياً إلى هذا الحد.

ـ هل ستشاركيننا العشاء؟ ستصل أمك وخالتك في أي لحظة. جميعنا سنكون مسرورين بصحبتك.

فقالت بابتسامة باهتة: «آسفة. لديّ موعد مع طائر السلوى».

إنها تتصرف بشكل صبياني، كما أخذت تعنف نفسها... فهي لم تستقبل سيزار بكلمة (مرحباً). لم يكن هذا تصرفاً صبيانياً فقط بل سوء سلوك. كان عليها أن تواجه الموقف بحنكة أكبر، وهو يتوقع ذلك من أي امرأة.

كانت لا تزال تتنفس مرتجفة بعد هذا اللقاء غير المتوقع. فقد تصرف وكأنهما لن يتقابلا مرة أخرى إذ أراد أن يتم الطلاق عبر محام، ولهذا كانت رؤيتها له هنا صدمة لجهازها العصبي، خصوصاً وأنها لم تفعل شيئاً طوال الأيام الثلاثة الماضية سوى التفكير فيه.

طوّقت ذراع كتفيها فتعثرت وأخذ قلبها يخفق بعنف: «انتظريني».

قال سيزار هذا وهو يدفعها أمامه برفق ثم أضاف: «ثم هناك كلمة تحذير، تجنبي يوغو فهو زير نساء».

ـ لكي تعرف شخصاً اسأل مثيله.

خرجت هذه الكلمات اللاذعة قبل أن تتمكن من منعها. ووقفت مرة أخرى وقد احمرت وجنتاها وشعرت بالخزي: «آسفة! لم يكن ثمة داعي لأن أقول هذا».

الإهانة لن تفيدها. نفضت ذراعه عنها ونظرت إليه من تحت أهدابها الكثيفة، ثم حوّلت عينيها عنه بسرعة.

كان يبتسم. تباً له! يبتسم بذلك التألق الذي يحبس الأنفاس. وجوده هنا، قريباً منها، لا يساعدها على الشفاء مقدار ذرة، بل على العكس. لكنه لم يكن يتعمد القسوة. فهو لا يعلم كم تحبه، ولم يعلم قط ولن يعلم.

تابعت سيرها وهي تتساءل مرتجفة: «لماذا عدت؟».

كانت تعلم أنه لا يسعى لكي يعذبها. فهي التي أرادت إنهاء علاقتهما على حدّ علمه وقد وافق أخيراً على طلبها. وبهذا يكون

سؤالها في محله ومن باب التهذيب.

ـ تركت شيئاً خلفي.

هل نبرة صوته متوترة؟ وصوته أبحّ؟ واقشعر جلدها لفكرة مخيفة. وحدثت نفسها بأن هذا يكفي، وأن عليها أن تمتنع عن الاستغراق في الاحلام وعن تمنّي شيء غير موجود! وأسرعت الخطى، وهي تجيب بفظاظة: «حسناً».

رغم أنها لم تستطع أن تتصور ما تركه خلفه، إلاّ أنها متأكدة من أنها لم تر أي شيء في الأنحاء قد يكون نسيه.

ـ كما أن علي أن أناقش أمراً مهماً معك.

كانا قد وصلا إلى المنزل الصغير، فوضعت يدها على مقبض الباب وردّت: «أنا مسرورة لأنني أنا أيضاً أريد أن أتحدث إليك عن ايجار بيتنا في «هامبستيد». لا أريدك أن تفعل شيئاً بشأن اتفاقيتنا...»

ومرة أخرى شعرت بوجهها يتوهج بعنف.

ـ اتفاقيتنا انتهت، وأنت تصرفت بشكل بالغ الشهامة مع هيلين وأنا سأبقى شاكرة لك فضلك هذا، لكني لا أريد شيئاً أكثر من هذا.

ـ آه...

قال هذا برقة... برقّة شعرت معها بتأثير هذه الكلمة يلامس بخفة كل إنش في جلدها. نظرته إليها، وكأنه يخفي سراً يبهجه، جعلتها متوترة الأعصاب.

كم افتقدها! وتنقلت عينا سيزار من شعرها اللامع المنسدل، إلى عينيها الرائعتين القلقتين، إلى شفتيها الممتلئتين وإلى قدّها المياس.

كل هذا ملكي! فكر في ذلك بشيء من التملك وهو يخبط الأرض بقدمه بعنف، وقد تملكته الرغبة في أن يطوي المسافة القصيرة التي بينهما، كي يضمها. لكن عليه أن ينتظر، فاستعجال الأمور لن يساعده

في الحصول على ما يريد.

فتح لها الباب وأشار إليها بالدخول وهو يقول بلطف: «لقد سبق أن عالجت أمر الإيجار والبيت ملك هيلين طالما رغبت فيه».

ـ لا!

شهقت وهي تنظر إليه متحدية في الضوء الذاوي. كان الإحباط يلهب دفاعها وعيناها تلمعان بدموع غضب مفاجيء: «لا يمكنك أن تفعل ذلك».

ـ لقد فعلته فعلاً. وقد وقّعت المستندات هذا الصباح.

أغمضت عينيها كيلا تراه، وزمّت فمها بعنف كيلا تصرخ محبطة. وعندما استعادت سيطرتها على نفسها، صرفت بأسنانها: «إذن، وبشكل ما سأسدّد لك كل ما دفعت. أنا الآن زوجتك لكنني لا أريد أن آخذ أجراً! التفكير في ذلك يجعل جلدي يقشعر. ولذا، إذا كان هذا ما جئت لتناقشه معي فربما من الأفضل أن تخرج حالاً! لقد قلت كل ما أريد قوله في هذا الموضوع. سأسدّد لك كل قرش ولو أمضيت في ذلك بقية حياتي».

فقال يهدئها وهو يقترب منها قليلاً وقد رقّت نظراته: «عزيزتي، ما جئت لأقوله لا علاقة له بأمور مادية. عليك ألاّ تظني ذلك. أنا أريد أن أساعدك. أنا...».

وبتر بقية الجملة قبل أن تخرج الكلمات المتهورة. لن تحتمل عبء اعترافه بالحب، لأن بيانكا جي لم تكن تريد ذلك النوع من الالتزام العاطفي. تجربة أمها وما نتج عنها من تعاسة وتدمير لحياتها هو السبب في ذلك. وأضاف بابتسامة مرغمة: «مناقشة الإيجار لم تكن ضمن قائمتي».

ـ ماذا إذن؟

ولم تحتمل التسلية التي بدت في صوته، حين قال وهو يشعل النور: «هذا شيء يخصني لكنك ستعرفينه في ما بعد، بعد أن أستحم. أظنك ذكرت طائر السلوى. إنني متشوّق لتذوقه».

وعندما صعد السلم، حدث نفسه بأن يتمهل... يتمهل... لقد حدثته غريزته بأن يعود ليأخذها بين ذراعيه ويعانقها حتى تتجاوب معه.

إذا أرادها توافق على ما يرغب فيه أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم، فيجب أن تتوجّه المناقشة إلى عقلها وليس إلى قلبها.

وسيتمكن من ذلك! فكر في ذلك شاعراً بالانتصار. إذا وصل الأمر إلى مائدة المفاوضات، فلا أحد يستطيع أن يغلبه.

* * *

٨ ـ خطة محكمة

أخذت بيانكا تراقب سيزار حتى وصل إلى زاوية قمة السلم، ثم اختفى، وقد تملكها الاضطراب وراحت مشاعرها تغلي.

أعدّي المائدة، كأي فتاة طيبة... نعم يا سيدي! أوامرك مطاعة سيدي!

أخذت تتمتم بذلك ساخطة، ثم أخرجت من الثلاجة الطائرين اللذين كان جيوڤاني قد أحضرهما لها هذا الصباح، وألقتهما على المائدة بعنف. إذا أراد سيزار أن يأكل طائر السلوى فليطهه بنفسه، فقد فقدت شهيتها.

سارت إلى الباب المفتوح واستندت إليه شابكة ذراعيها على صدرها وراحت تعبّ هواء الليل بعمق آملة أن تهدأ أعصابها. اشتمت رائحة البحر وشذا زهور إكليل الجبل...

تبعاً لمبادىء العلاج برائحة الزهور، أليس من المفروض أن تصفي زهور «إكليل الجبل» الذهن وتنقي الأفكار؟ حسناً، إنها الآن لم تؤثر فيها!

فهي لم تستطع أن تفهم لماذا جاء.

أتراه يستعمل هذا المكان كمحطة استراحة عندما يترك لندن؟

كلا، طبعاً، هذا غير معقول، فالتسهيلات في الفيلا أفضل

www.elromancia.com

بكثير... الحمامات الرخامية الفسيحة، وجيش الخدم، ووجبات الطعام المتعددة الفاخرة. كما لم يحضر ليأخذ شيئاً كان قد تركه خلفه، كما قال، لأنها لم ترَ شيئاً إلا إذا كان يعني ثيابه المعلقة في الخزانة. وهذا أيضاً غير معقول أبداً!.

فلديه شقة في لندن وأخرى في نيويورك، وفيلا غاية في الفخامة على تلال روما. وكل منها تحوي خزائن تضم ملابس تصلح لكل المناسبات ومن تفصيل كبار المصممين العالميين.

وهكذا يبقى الإيجار.

أخذت تصرف بأسنانها حتى آلمها حنكها. التفكير في المبلغ الذي لا بد أنه أنفقه على ذلك رفع ضغط دمها. لكنه قال إن مسألة الإيجار ليست على قائمته. على أيّ حال كان بإمكانه أن ينتظر حتى تسافر إلى لندن، كي يعالجا ذلك الأمر عن طريق المحامي.

محاولات فهم دوافعه شلّت دماغها نهائياً، لكنها على الأقل، أبعدت ذهنها عن الأمور الأخرى. السرور المؤلم لرؤيته مرة أخرى، وقربها منه جسدياً إن لم يكن عاطفياً، وخفقات قلبها التي جعلت إرادتها تنهار عندما نظرت إليه، حبها له... حبها الدائم له... كل هذا يبدو الآن مصيراً لا تحسد عليه.

ـ العصيان يناسبك.

لم تكن قد سمعته يأتي ويقف خلفها. كان صوته حلواً ناعماً بطيئاً أشبه بالملامسات، ما جعل أنفاسها تنحبس في صدرها وخفقات قلبها تتسارع.

قال بمرح: «وأنا أيضاً لا أسارع على الفور لألبي مطالبك».

لكنه يفعل هذا، وهو يعلم أنه يفعل. إنه مستعد لأن يقفز من خلال الأطواق ويعود منها لو طلبت منه ذلك.

وضع يديه على كتفيها بخفة... بخفة بالغة. من دون ردّ فعل... لا شيء يحدث حريقاً يلهبها... فعل ذلك بسهولة... بسهولة ولطف...

شعرت بالتوتر تحت أصابعه، وبارتفاع حرارة جسدها. وبرفق أدارها لتواجهه. وعلى الفور أنزل يديه إلى جانبيه، فإذا ما أبقاهما على كتفيها فلن يتمكن من مقاومة إغراء لمسها وتدليك تلك العضلات المتوترة حتى تسترخي، وحتى تلف ذراعيها حول عنقه وتعانقه عناقاً يعزلهما عن العالم ويفقده ما تبقّى لديه من عقل.

عندما يكون معها يشعر وكأنه في عالم آخر. لكن هذا الدرب لم يكن طريقاً مناسباً للتقدم. ولو كان كذلك لما واجه سيزار معركة الإرادات هذه. فاقناع عقلها هو الطريق الوحيد لنيل ما يريده.

حوّل نظراته عن عينيها الكهرمانيتين اللتين جعلتاه يشعر وكأنه يغرق منذ رآهما لأول مرة، ثم قال بلطف: «دعينا نحاول الطهي معاً. ستكون هذه أول مرة، لكني مستعد دوماً لتعلّم أي شيء جديد».

كاستعداده للتعرف إلى امرأة جديدة حين يملّ الزوجة الحالية! كما أخذت بيانكا تفكر بعناد. لكنها لم تلبث أن نبذت هذه الأفكار الحقود، فهو لم يتحدث سوى عن الطهي معاً.

لقد طهى لها طعاماً في أول ليلة لها هنا، وكانا من قبل يأكلان في الخارج.

وهكذا قوّت نفسها ثم تبعته إلى غرفة الجلوس ومنها إلى المطبخ.

كان يلبس قميصاً قطنياً مقفلاً أظهر كتفيه العريضتين وعضلات ذراعيه وبشرته السمراء التي تلمع كالحرير الناعم.

تجاهلت ارتعاش قلبها المعتاد، والأحاسيس الحارة التي فاضت في كيانها، وجلست معه إلى المائدة. إذا شاء أن يلعب لعبة التنافي

المنسجم، فمن الحكمة أن تسليه، ثم تسأله عن سبب عودته إلى هنا ما دامت الأمور على ما يرام وقد انتهى كل شيء بينهما. إن حضوره يشعرها بمزيج من البهجة والعذاب مصعباً الأمور عليها، ومشكّلاً خطراً كبيراً على توازنها.

ـ ماذا نفعل بهذا؟

وأشارت إلى طائري السلوى، وصوتها يماثل صوته مرحاً أو على الأقل هذا ما كانت ترجوه: «هل نشويهما كالدجاج أم ماذا؟».

ـ أينما أكلت لحم هذا الطائر، كانوا يقدّمونه لي مقلياً بالسمن.

وألقى عليها نظرة جانبية باسمة وسألها: «هل لدينا سمن؟»

أرادت أن تبدو هادئة باردة وألا تظهر الكثير من الاهتمام، لكنها كانت تلهث. لماذا جعلهما قوله هذا يبدوان كأنهما زوجان فيما هما يعرفان أنهما منفصلان؟

البحث في الثلاجة منحها عذراً للابتعاد عنه، وتهدئة ذهنها المحموم. وعندما عادت إليه أخيراً بالسمن، كان قد أشعل الفرن وراح يفتش في الخزانة فافترضت أنه يفتش عن قدر. كان الاستياء لما يفعله بها وبسبب عقد الإيجار ما زال يتملكها جاعلاً عينيها متمردتين وفمها منهدلاً.

ـ كانوا يضعون أعشاب، كما أتذكر، في الحشوة. اختاري شيئاً منها ريثما أشوي البصل.

وسكت بينما جاشت عيناه بمشاعر جعلت المسافة بينهما تتقلص ما جعلها تشعر بالانفعال والسخونة، ثم قال: «هل نحن الآن زوجان كسائر الأزواج يا «بي»؟».

ومنحها تلك الابتسامة المدمرة فكادت تذوب. لو استطاعت فصل الزوج عن الحبيب، لكان ذلك أفضل حتماً من أن تتوتر أعصابها وينتهي

الأمر بانفجار بركان من المشاعر المكبوتة.

يمكنها حتماً أن تحتمل ساعتين وهو الوقت الذي يستغرقه طهي الطعام وأكله.

سيتصرفان كصديقين للفترة التي يتطلبها طهي وجبة. وبعد أن يأكل سيذهب بكل تأكيد ليتركها تداوي جراحها الجديدة التي ابتلاها بها.

بعد قرارها هذا، أصبح من السهل التعامل معه. فأعدّا معاً سلطة رائعة، بعد أن تناقشا في مكوّناتها، ليصلا إلى حل وسط، بينما الطائران يشويان في الفرن.

أخرج سيزار طاولة مطوية وكرسيين إلى جانب جدول المياه ثم وضع على المائدة مصباحاً زيتياً مزخرفاً لأن الظلام حلّ.

دعاها إلى الجلوس، وشاركها قطعة جبن لأن معدتيهما كانتا تتلويان جوعاً. وبعد أن نضج الطعام قال: «لم أفعل هذا قط من قبل. أن أتعشى، وقدماي في نبات الخنشار، طعاماً من تحضير هاويين مرتبكين مسالمين، وعلى مائدة تبدو وكأنها على وشك أن تسقط حطاماً في أي لحظة».

ورفع كأس العصير مضيفاً: «نخب الحياة البسيطة».

ـ سأبادلك نخب ذلك!

لكن تجاوبها مع النخب كان كالأنين الأجوف فتمنت ألاّ يلاحظه. إذا كان يرى أنهما مجرد زوجين عاديين فعليها أن تسايره في ذلك، ولكن مشاعرها لم تكن بسيطة أبداً.

بعد الطريقة التي انفصلا بها وقراره انهاء الزواج الذي لم يبدأ في الأصل، لم يبدُ عليه أيّ تأثر. لقد عقّد الأمور! ورؤيتها له مرة أخرى عمّقت شعورها بالخسارة، واليأس، والهجران.

لم يكن الطائران صالحين للأكل وحسب، بل ومطهيين جيداً في الواقع. هنّا بعضهما البعض وأكلت بيانكا معظم حصتها قبل أن يخنقها التوتر أخيراً.

إذا سألته عن سبب وجوده هنا فقد لا يعطيها جواباً واضحاً أكثر مما فعل من قبل. وهل تسأله عما إذا كان ينوي أن يبيت الليلة هنا أم سيعود إلى الفيلا؟

تمنّت أن يعود إلى الفيلا. فقد وافق على أن علاقتهما انتهت، فلماذا ينام في هذه الغرفة ذات السريرين فيما الرفاهية البالغة متوفرة في الفيلا؟

من المؤكد أنه لا يتوقع أن ينام معها! فهذا أمر انتهى. وهو وافق على ذلك! هل من الممكن أن يتوقع قضاء الليلة معها، وإذا فعل، فهل بإمكانها أن تقاوم؟

وخزة الإثارة في أعماقها لمجرد التفكير في ما قد يحدث، أظهرت لها أن قدرتها على مقاومته معدومة، وهذه مصيبة لأنها ستعيق أي تقدّم نحو نسيان حبها له، لا بل ستدفعها في الاتجاه المعاكس.

كانت من التوتر بحيث لم تستطع الجلوس بهدوء، فكيف بأن تنظر إليه مسترخياً حسن المزاج. وعندما ابتدأت الحشرات تلسعها، وجدت عذراً مناسباً: «أظنني سأدخل إلى البيت. فثمة أشياء قررت أن تتغذى على ساقي».

نبرة صوتها فضحت توترها الداخلي لكنه قال بكسل: «أظنك على حق تماماً». ما أنبأها بأنه لم يلحظ توترها.

وقف حين وقفت بالضبط. بدا في ضوء المصباح غامضاً بشكل غريب، خطراً ومثيراً للأعصاب، وقد ارتسم على ملامح وجهه ارتياح خشن. واندفع في جسدها المتوتر تشنج لذيذ مخيف. كان بالغ

الروعة، يجمع في شخصه كل ما تريده، كل ما لا تستطيع الحصول عليه. ولكي تخفي آهة معذبة، انحنت تحك لسعة مفاجئة في كاحلها متمنية لو يلقي إليها تحية المساء ويرحل. ذلك أنها قد تجعل من نفسها حمقاء وتنفجر في البكاء في دقيقة.

فقال بلطف: «لا تحكّي! ثمة مرهم في المطبخ في صندوق الإسعافات الأولية وأسبرين. استعمليه بعد أن تستحمي».

ابتلعت غصة وقالت متلعثمة: «شكراً».

ثم سارت صعوداً باتجاه البيت. وبعد عدة خطوات، وقفت ثم التفتت إليه. إن له الحق كله في أن يتوقع منها أكثر من الهرب بطيش.

لن يستطيع أن يراها بوضوح في الظلمة، وهذه نعمة. كما سيتحرك هو أيضاً بعيداً عن ضوء المصباح وبهذا لن تستطيع أن تراه جيداً، هي أيضاً. وهذه نعمة أخرى.

قالت ببشاشة: «شكراً لمساعدتك لي. تحضير العشاء معاً كان مصدر سرور. ستحتاج إلى مصباح يدوي لتجد طريق عودتك إلى الفيلا... أنت تعرف أين تجده، تصبح على خير يا سيزار».

مضت فترة صمت قصيرة، ثم قال: «تصبحين على خير يا «بي»».

وهكذا كان! أجبرت نفسها على أن تسير بخطوات طبيعية إلى البيت، ومن ثم صعدت السلم قفزاً. لم تشأ أن تكون موجودة عندما يلحق بها ليأخذ المصباح اليدوي. لم تشأ أن تراه مرة أخرى، أبداً! فهذا مؤلم للغاية.

وقفت تحت مياه الدوش المهدئة وهي تفكر بتعاسة أنها تعلم الآن بالضبط لماذا أمضى الأمسية معها، وما الذي كان ينوي أن يتحدث عنه.

بالرغم من أنه انحدر إلى مستوى الابتزاز... وذكّرت نفسها بأنه عاد واعتذر... إلا أنّ سيزار أندريوتي رجل متحضر مهذب. لقد بقي

وفياً لها أثناء علاقتهما، وكان من التهذيب والذوق بحيث لم يشأ أن ينفصلا بشكل مختلف عن ذلك.

لذا، وفي النهاية، لم يعد ثمة حاجة لأي حديث. (هل نحن الآن زوجان عاديان يا «بي»؟) هذا هو السؤال الذي طرحه ولكي تحمي نفسها تصرفت معه على هذا الأساس.

وبما أنها هي التي أنهت العلاقة منذ البداية، لم يكن لديه فكرة عن حقيقة مشاعرها نحوه. وهو لا يستطيع أن يتصور كيف أن إرغامه لها على الزواج منه من أجل إشباع رغباته يمكن أن يعذبها بهذا الشكل. وتدفقت دموعها فامتزجت بمياه الدوش. آه يا سيزار، قالت هذا من أعماقها، ثم أخذت تشهق باكية.

* * *

أحضر سيزار المصباح اليدوي ثم عاد ليطفىء المصباح الزيتي. وأخذ يرفع الأطباق عن المائدة.

لقد أثارت مسألة إيجار المنزل مرة أو مرتين، لكن الأمور سارت بالإجمال حسب ما هو مخطط لها. وانتهت المرحلة الأولى من الخطة بسهولة.

يمكن ألا يكون لديها فكرة عن مدى شوقه لأن يأخذها بين ذراعيه، ولأن يشرح لها كيف أن اكتشاف نفسه ومشاعره صعقه عندما عاد إلى لندن، وكيف أن شوقه إليها تحوّل إلى ألم جسدي.

فتح باب خزانة الإسعافات الصغيرة وأخرج المرهم، ثم أطفأ نور المطبخ وصعد السلم.

حان الوقت لتنفيذ المرحلة الثانية، وإعلامها أنه سيبقى هنا حتى الصباح.

رأى ضوءً خفيفاً يتسرب من تحت باب الغرفة التي ستنام فيها،

الغرفة التي من المفترض أن يتشاركا فيها.

شعر بتنفسه ثقيلاً وهو يقرع الباب بخفة ثم يفتحه. وقف عند العتبة وقلبه يخفق وهو يكافح لكي يتمسك بخطته التي تقتضي بألا يقوم بأي خطوة بأي شكل كان.

كانت جالسة على حافة أحد السريرين. فتشنجت عضلات عنقه وانتفض قلبه. إذا لمسها مجرد لمسة واحدة فقد تستسلم له. لكنه لا يريدها هنا الآن بل يريد شيئاً آخر مختلفاً.

كانت عيناها قد أظلمتا وهو يتفحصها بذلك الشكل المؤسف، وعلا الاحمرار وجنتيها.

ابتسم ابتسامة باهتة وقال بأسف: «آسف، لم أقصد إجفالك».

وألقى إليها بأنبوب المرهم فسقط بجانبها بخفة. ثم أرغم نظراته على التحوّل عن إغرائها الذي لا يقاوم، وتقدم من السرير الثاني بجانب سريرها وسحب عنه الملاءات.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أرتب سريراً في الغرفة الثانية.

كان هذا جوابه على سؤالها المختنق، واتجه إلى الباب قبل أن يستسلم لرغبته في أن يبقى، ويمر بيده على شعرها الحريري وظهرها الرشيق.

ـ إلى اللقاء في الصباح.

ثم أغلق باب غرفتها خلفه، وتوجه إلى الغرفة الأخرى متعثراً حيث أطلق آهة طويلة.

الخطة الثانية بدأت بنجاح، رغم أن العزاء في هذه اللحظة، كان ضعيفاً.

ألقى ما أحضره من غرفة بيانكا على أقرب السريرين ثم تقدم إلى

النافذة وأخذ ينظر إلى السماء المرصعة بالنجوم. حرمانه من بهجة وجوده معها هو ثمن زهيد إذا كانت النتيجة هي حصوله على ما يريد. وهو يريد الحصول على حبها..

ألم يتعوّد أن يحصل على ما يريد؟

أمامه خمسة أيام ليثبت لها فيها أن بإمكانهما أن يسعدا، ليثبت لها أن بإمكانهما أن يكونا زميلين، وصديقين حميمين، أن بإمكانهما أن يعيشا مع بعضهما البعض بانسجام، باحترام واعتبار متبادل كزوجين متحابين.

خمسة أيام!

لعل فكرة الزواج هي من وحي غريزته التي اكتشفت ما اعترف به عقله لاحقاً. وحالما أدرك أن عليه أن يحصل عليها بصورة دائمة في حياته، وأنه يريد لزواجهما هذا أن يكون زواجاً عماده الحب، لا زواج انتقام كما خطط له، اتصل بالبروفسور وأخبره أن ينسى تعليماته السابقة التي تقول إن طائرة الشركة ستكون بانتظار بيانكا جي في مطار «باليرمو» عندما تقول إنها جاهزة للعودة إلى لندن. كان على صديقه القديم أن يحجز لها على طائرة تجارية وهذا يعني أن أمامه فرصة وإن اقتصرت على أيام عدة.

لن تصدّقه بيانكا إن اعترف لها بحب لا يموت، فهذا آخر ما تريد أن تسمعه. فقد تعلمت منذ طفولتها ألا تثق بالرجال أمثاله، الرجال الذين لديهم من المال ما يكفي ليشتروا ما ومن يريدون.

إنه بحاجة إلى أن يعلمها أن تثق به كلياً. وعندما يحصل ذلك، يمكنهما أن يصبحا زوجين وصديقين حميمين ويمضيا بقية حياتهما معاً كزوج وزوجة.

يجب ألا تعلم أبداً أنه وقع في حبها من قبل من دون أن يدرك

ذلك.

عليه أن يحتفظ بذلك لنفسه وإن كان يأمل ألا يضطر لذلك طوال فترة حياتهما معاً. في مرحلة ما من السنوات القادمة، وبعد أن تتعزز ثقتها به، ستتعلم أن تحبه. وهذا كل ما يمكنه أن يرجوه، ويريده.

ألقى على النجوم نظرة أخيرة، ثم راح يرتّب سريره. كل ما عليه أن يفعله هو أن يقنعها بأن بإمكانهما أن يمضيا حياة جيدة معاً. صداقة حميمة، مرح وضحك وحياة زوجية سعيدة. وهذه ستكون بداية جيدة بالنسبة إليها.

* * *

www.elromancia.com

٩ ـ على خطى أمها

نزلت بيانكا من السرير في الصباح التالي، قبل السابعة بالضبط، غير قادرة على الاستلقاء من دون نوم، ومحاولة السيطرة على خفقات قلبها.

شعرت بنفسها أشبه بالميتة وعندما تأملت نفسها في المرآة بدت فعلاً كالميتة.

عيناها منتفختان من البكاء، وفمها مزموم متهدل الجانبين...

غضبت من نفسها لأنها سمحت لسيزار بأن يوصلها إلى هذه الحالة، فتناولت سروالاً قصيراً أصفر وقميصاً قطنياً أبيض ثم توجهت إلى الحمام.

البخار الذي علا المرآة كان شاهداً على أنه استيقظ قبلها. ورائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي يستعمله دوماً جعلت قلبها ينقبض ودموعها تنهمر فجأة. فحدثت نفسها بعنف: تمالكي نفسك واكبري، علاما تنوحين؟

هي التي جلبت كل هذا لنفسها حين وقعت في غرامه.

ستنساه مع الوقت، وابتداءً من هذه اللحظة!

بعد ذلك بنصف ساعة، هبطت السلم متعثرة نوعاً ما، رافعة كتفيها، منتصبة الجسم وقد ربطت شعرها الأسود اللامع إلى الخلف بوشاح أصفر من الشيفون.

لم تجد أثراً لسيزار، ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تشعر بخيبة أمل مرّة أم بارتياح عميق. عليها أن تشعر بالارتياح العميق، كما حدثت نفسها بحماسة. فرؤيته والجلوس معه لن ينفعاها على الإطلاق. وإذا كان حظها حسناً فستكتشف أنه ذهب إلى الفيلا ليتناول الفطور ويتحدث إلى هيلين عن تقدمها مع البروفسور.

أخذت تحضر القهوة، وكان الباب الخارجي مفتوحاً على اتساعه، والجو يبشر بيوم رائع مشمس آخر بينما النسيم يخفف من الحرارة ويجعل مياه البحر تتراقص لامعة.

ـ رائحة القهوة جيدة كما أحبها بالضبط.

صعقها ذلك الصوت المألوف. وجمدت وهي تهم بتناول الفنجان من على الرف العلوي، كما اقشعر شعر رأسها وأخذ قلبها يخفق.

شعرت وكأنها تمثل بالتصوير البطيء وهي تتناول فنجاناً بيدها اليسرى ثم تعود لتتناول فنجاناً آخر بحركة آلية.

استدارت ووضعت الفنجانين بحذر على مائدة المطبخ كيلا يسقطا من بين أصابعها المرتجفة ويتحطما على الأرض الحجرية.

ـ ظننتك ذهبت إلى الفيلا لتناول الفطور!

حتى صوتها بدا لها غريباً ذا صدى وكأنها تدفع الكلمات دفعاً خلال كهوف الزمن. انكمش قلبها الممزق ثم عاد يخفق بعنف، فشعرت بدوار.

كان رائعاً! ما من كلمة أخرى تصفه بها. وكانت تحبه، وهي لا تستطيع الامتناع عن ذلك. لا تستطيع التخلص من ذلك الشعور.

فأجاب بعدم اكتراث: «لا. استيقظت مبكراً فذهبت أتمشى».

لكي يبعد نفسه عن طريق الإغراء، كما أخذ يفكر وهو يصرف بأسنانه. لكي يرتب أولوياته.

لقد دار في نفسه صراع كبير في الصباح المبكر. كان متلهفاً للذهاب إليها، فقط ليتأملها وهي تستيقظ في الصباح.

أراد أن يلامس أجفانها النائمة وأن يزيح خصلات شعرها عن وجهها، ويمر بأنامله على شفتيها الحالمتين المقوستين اللتين استيقظتا لتوهما، ثم يضمها إلى قلبه.

عندما أجبره التعقل على الالتزام بخطته، بدا وكأنه يواجه هزيمة ساحقة، فكان أن غادر سريره وأخذ حماماً بارداً ثم ارتدى ثيابه وخرج يتمشى ذاهلاً مضطرباً حتى استعاد توازنه.

بعدئذ، عاد ليأخذ حماماً ساخناً ويغسل جسده من العرق والتوتر ثم يحلق ويخرج... يخرج لينتظرها.

وكانت هي تستحق ذلك الانتظار بثيابها الصفراء البهيجة، وساقيها الطويلتين اللتين صبغتهما الشمس نسيباً.

الرغبة الحادة في أن يضمها إلى قلبه ويعانقها بكل ما أوتي من قوة كانت أشدّ من أن يستطيع مقاومتها.

أخذ نفساً ممزقاً وكبح آهةً في داخله ثم سكب القهوة لهما مبعداً أفكاره تلك الموهنة عن ذهنه، ثم سألها: «هل نمت جيداً؟».

فأجابت بشكل مبالغ فيه: «لا بأس».

وكانت تبالغ في قولها فرفع رأسه والتقت عيناه بعينيها.

وكالعادة، كان تأثير ذلك مرهقاً. فقد ارتجف كيانها وتنفست بعمق وهي تلاحظ تقطيب حاجبيه وهو يقول: «أنت شاحبة جداً».

لم تجب وحملت فنجان قهوتها بيديها الإثنتين. ليلة معذبة من دون نوم لا تساعد الفتاة على الاستيقاظ بوجه مشرق! لكنها لا تستطيع أن تخبره بذلك. وبقي ينظر إليها عن قرب ثم تابع يقول: «سأحمص خبزاً. هل تريدين معه بيضة؟».

ـ لا أريد شيئاً، ولكن افعل ما تشاء.

عبس مرة أخرى. أراد أن يقول شيئاً، لكن يبدو أنه غيّر رأيه، فتركته بيانكا وأخذت فنجانها وخرجت لتجلس على مقعد خشبي في الظل.

كان سيزار قد أعاد إلى البيت الطاولة والكراسي التي أخرجها الليلة الماضية، كما لم ترَ هناك أثراً للأواني التي استعملاها للعشاء. لقد أنجز كافة أعمال الترتيب والتنظيف بعد انتهائهما لذا لا تستطيع أن تسجّل عليه أي مأخذ.

لم يحاول أن يشاركها سريرها، فحاولت جهدها لئلا تعتبره مخطئاً في هذا! لكن الحقيقة المؤسفة هي أنها تشعر بلهفة بالغة إليه ممزوجة باشمئزاز بالغ من نفسها، لأن مشاعرها هذه لن تساعدها في رحلتها الطويلة الموحشة التي ستسلكها لنسيان حبها له.

عندما انضم إليها سيزار على المقعد الخشبي خفق قلبها. ابتعدت عنه قليلاً بحذر، آملة ألاّ يلاحظ ذلك. وعندما قدم لها طبقاً مليئاً بشرائح الخبز المحمص المدهون بالزبدة، أشاحت بوجهها: «لا، شكراً».

معدتها التعيسة المنقبضة سترفض أي شيء تبتلعه. وكان عليها أن تسأله: «أخبرني لماذا جئت؟».

فأجاب بفم ملآن: «ولما لا؟ وجدت أن عليّ أن آتي إلى الجزيرة، وبما أنك هنا من دون اصدقاء ولعدة أيام، رأيت أن نمضيها برفقة بعضنا البعض».

هكذا إذن! و(أيامه العدة) أيام طويلة بالنسبة إليها! ألا يدرك ما تفعله بها رفقته؟

لا، إنه طبعاً لا يدرك، كما أجابت نفسها بعنف. ففي البيئة التي

يعيش فيها لا أهمية للعلاقات الزوجية، وإذا حصل الانفصال بشكل حضاري مهذب، فيمكنهما أن يبقيا صديقين.

كما برهن عن هذا!

صرفت بأسنانها من دون وعي. إنها تفضل الطريقة الأخرى، حين اعتذر موافقاً على أن علاقتهما انتهت، ثم رحل عنها، بارداً، نائياً، منفصلاً عاطفياً.

فذلك على الأقل أثبت أن علاقتهما انتهت، أما هذه الطريقة، طريقته، فهي ليست أكثر من تعذيب.

راحت أفكارها العنيفة تدور في ذهنها بيأس وسمعته يقول بثقة: «فكرت في أن نأخذ المركب هذا اليوم ونزور واحدة أو اثنتين من الجزر الأخرى. مررت بالفيلا هذا الصباح وطلبت من ماريا أن ترسل إلى المركب «بيلا إليغرا» سلة طعام».

أوشكت أن ترفض عرضه شاكرة، لكنها عادت فغيّرت رأيها إذ وجدت من الحكمة أن تبقى صامتة. إذا قالت إنها لن تذهب، فربما لن يذهب هو أيضاً. وقضاء يوم في جزيرة أخرى سيمنحها على الأقل شيئاً تفكر فيه وتنسى أنه يرافقها.

لن تضطر، على الأقل، لأن تقاوم أو تستسلم بلهفة إليه... ومن المؤكد أنه ما كان ليبقى في غرفة أخرى الليلة الماضية لو أنه يفكر في تلك الناحية!

قال وهو ينظر إلى ساعته: «ستكونين بحاجة إلى قبعة قش ونظارات شمسية و«كريم» للوقاية من الحروق. لا أراك تريدين أن تصابي بحروق من الشمس».

لكنه أحرقها فعلاً وبشكل بالغ، كما أخذت تفكر بمرارة أثناء عودتها إلى غرفتها لتجمع ما ستحتاج إليه. ما زال أمامها وقت

لتغيّر رأيها، كما أخذت تفكر بتوتر وهي تطوف في أنحاء الغرفة تدس في حقيبة كتفها القطنية كريماً مضاداً لحروق الشمس ونظارات داكنة وعلبة مناديل ورقية.

يمكنها أن تمضي ثلث ساعتها المعتاد مع أمها ثم بقية النهار مع جين. ولا يمكنها أن ترى سيزار المتململ البالغ الحيوية ملتصقاً بها كالصمغ، ممضياً يوماً كسولاً مستمعاً إلى شكاوى خالتها... مثل هذا اليوم لن يعجبه على الإطلاق.

ولكن فكرة اختيار صحبة خالتها بدلاً من صحبة سيزار جعلتها تشعر بفراغ وبهزيمة بالغة.

فكرت بيأس بأنها، كأي مدمن، لا تستطيع الإكتفاء منه رغم علمها بأن صحبته سيئة جداً بالنسبة إليها. فقضاء المزيد من الوقت معه يعني التراجع عن عملية الشفاء من حبه التي لم تكد تبدأها حتى.

سمرّت عينيها على مناظر الجزيرة وهما يسيران على التلة ليهبطا إلى الخليج الصغير. واح سيزار يسمّي لها الجزر المجاورة التي ينوي الاتجاه إليها، ولكن بيانكا كانت من الغليان في داخلها بحيث لم تستطع استيعاب ما يقول. وأرغمت نفسها على الخروج من أفكارها التي لم توصلها إلى شيء، عندما سمعت خطوات يوغو خلفهما، وكان يحمل صندوقاً. وتكلفت الابتسام والجواب حين حياهما معاً بالإيطالية.

وقف أمامهما وراحت عيناه تتأملان ساقيها الطويلتين فيما لوت ابتسامة بطيئة شفتيه الممتلئتين، حتى صرخ سيزار به بالإيطالية بكلمات محت ابتسامته تلك وجعلته يضع الصندوق على الأرض الحجرية. ومضى يستمع محني الرأس باحترام إلى ما بدا لبيانكا سلسلة من الأوامر من مخدومه.

أخذت بيانكا تنظر إلى الإيطالي الشاب وهو يعود من الطريق الذي جاء منه، وشعرت فجأة بقلبها يخفق. لقد تصرف سيزار أمس بهذا الشكل الجارح مع يوغو عندما وجدها تتحدث إليه. فهل يمكن أن يكون غيوراً؟

إما هذا وإما أنه شعر فجأة بكراهية غير منطقية نحو سائقه. ورأت أن هذا التعليل الأخير هو الأكثر احتمالاً.

- هيا، اتبعيني.

قال ذلك بتوتر يتناقض مع رقته منذ لحظات. ثم عاد يضيف بلهجة ألطف: «وحاذري أين تضعين قدميك».

نظرت إليه من تحت أهدابها، وخيّل إليها أن تلطيف لهجته معها الآن كلّفه جهداً بالغاً. بدا متصلّباً للغاية وهو يحمل الصندوق إلى الشرفة الصخرية الطبيعية التي تمثل ملجأً لمياه الخليج العميقة، من عواصف لا يدري أحد متى تهبّ.

كان المركب راسياً في أحد الجوانب، فاضطرت إلى الإمساك بيده الممدودة إليها لتنزل، ما أثار فيها أحاسيس حاولت جهدها أن تتجاهلها.

وضع الصندوق في المركب، ثم أدار المحرّك. جلست بيانكا في المؤخرة على مقعد خشبي، فيما اتجه المركب «بيلا أليغرا» إلى المياه المفتوحة، وقد خلا ذهنها من كل شيء ما عدا لمسة الريح والشمس على وجهها وأعماق المياه الشفافة الخضراء.

* * *

- يبدو مكاناً رائعاً. ألا تظنين ذلك يا «بي»؟

خلعت قبعتها وأخذت تروّح بها عن وجهها المتوهج وهي توافقه بابتسامة عفوية: «تماماً. وأنا أكاد أموت جوعاً!».

بعد أن تركا المركب في أقرب جزيرة إلى جزيرة سيزار، قطعا سوقاً للسمك ساحته مسقوفة ويضم مقهى، ومرا ببيوت متواضعة مطلية باللونين الأبيض والوردي، كما صعدا مرتفعات شاهقة وطريق غير معبّد حتى وجدا هذا الخليج الصغير المنعزل بشاطئه الرملي الأبيض، الذي يشرف عليه جزء مرتفع من بركان خامد.

كان المكان رائعاً إلى حد عنيف. وفجأة، شعرت بسرور عنيف لأنها ابتلعت شكوكها ووافقت على أن تمضي النهار معه.

كان رفيقاً ممتازاً طيلة الصباح، وهو يمر بالصخور البركانية القديمة، وبالكهوف حيث استحال لون المياه إلى لون زيتوني داكن غامض، وحيث السكون حاداً فضلاً عن المنحدرات الخضراء حيث كانت الأغنام ترعى.

وأوضح لها أموراً هامة مثل أن هوميروس ذكر هذه الجزر في ملحمته الشهيرة، وكيف أن انفجار البراكين على امتداد القرون ترك سواحلها مهددة وخطرة. ووجدت معلوماته عن مجموعة الجزر هذه مثيرة للاهتمام للغاية.

مدّ لها يده السمراء: «تمسّكي بي وسنرضي شهيتك حالياً».

اللهجة الحميمة لهذا الصوت الأجش جعلتها تحبس أنفاسها شوق عنيف مرغم.

أمسكت بيده وهما ينحدران على الطريق الضيق نحو الشاطىء في الأسفل. وحدثت نفسها بحزم بألا تستنتج شيئاً من قوله ذاك. كيف يمكنها ذلك وهو مثال للسيد المهذب؟ مضيف ساحر لم يلمسها قط من دون ضرورة، أو يلقي عليها تلك النظرة الملتهبة التي تفرغ ذهنها من كل شيء.

لكن الإمساك بيده، لتلتفّ أصابعه الطويلة حول أصابعها، جعل

قلبها يكبر في صدرها حتى لم تعد تستطيع أن تحرم نفسها من لمسته ودفئه وهما يسيران على الشاطىء الرملي إلى ظل صخرة مشرفة. فقربه حاجة أكبر من حاجتها إلى التنفس.

وكان سيزار هو الذي سحب يده من يدها عندما انحنى ليفتح الصندوق. أخذت تنظر إليه مستمتعة برشاقته الخشنة حتى كادت المشاعر تخنقها. وجودها معه كان ضرورة وعذاباً معاً. ولم يكن هو يعلم ذلك، لكنه رائع للغاية.

جلست على الرمل وعيناها تلتهمان كل حركة وكل إنش رائع منه وكأنها آخر مرة تراه فيها.

كان رأسه الأسود الشعر منحنياً حين ناولها صحناً مليئاً: «شكراً».

بالكاد استطاعت أن تقول هذا، فقد خنقتها غصة واغرورقت عيناها بالدموع. أرادت أن تتوسل إليه كي يحبها بالقوة نفسها التي تحبه بها. لكن هذا سيكون مضيعة للوقت لأنه لا يستطيع ذلك. ولماذا يقيّد نفسه طوال الحياة؟

إنه غني وذو سلطة ومذهل وغير معتاد على الإخلاص، فلماذا يلتزم بالزواج من امرأة واحدة إلى الأبد؟

ابتلعت شيئاً أوشك أن يكون شهقة، وتوتر جسدها عندما جاء ليجلس على الرمال الدافئة البيضاء بجانبها. إنها معتوهة وحمقاء تماماً، ومن الضعف بحيث تتوسل إليه أن يعيدها إليه وأن يمنحها من حيانه قدر ما يريد.

كانت واثقة من أنها تسير على خطى أمها، في حصر رغبتها برجل واحد لا يمكنها الحصول عليه. نظرت إلى صحن طعامها من دون أن تراه. لقد تلاشت الآن شهيتها النهمة.

ناولها سيزار كوباً من العصير، فأخذته منه بعد تردد قصير

وبأصابع مرتجفة.

إن احتساء هذا العصير البارد سيخفف شعورها بالألم وذلك الأنين الذي يبدو أنه صادر عنها، لأنه لا يحمل لها مشاعر تجعله يتوتر.

زعق طائر مائي في الجوّ، فيما الأمواج تتلاطم على الشاطىء، لكن كل ما استطاعت أن تسمعه هو خفقات قلبها السريعة وتنفسها اللاهث وهي تحاول التحكم بنفسها ومقاومة إحساسها الهائل بوجوده قربها.

تمنت لو يقول شيئاً... لأنها، هي نفسها، لا تستطيع... أي شيء يخفف هذا التوتر. وألقت برأسها إلى الخلف فشعرت بقبعتها تنزلق عن رأسها.

وأخذت تفكر في ما إذا كانت كأمها محكوم عليها بألا تحب إلا رجلاً واحداً.

تشبثت بكوبها بشدة آلمت أصابعها، عندئذٍ غمر أصابعها بأصابعه وأخذ الكوب منها ثم وضعه على الرمال. وعندما التقت عيناه بعينيها، رأت في أعماقهما ما يشبه العذاب فلم تفهم سبب ذلك.

خفقت أهدابه ثم سكنت: «بي»... علينا أن نتفاهم. لا أستطيع الصمت أكثر من ذلك. لديّ ما أقوله لك».

ركّز عيناه الملتهبتان على عينيها فاجتاحتها موجة من الخشية. مهما كان ما سيقوله لها فهو سيزعجها. إنها تشعر بذلك في أعماقها!

* * *

١٠ ـ عرض مغرٍ

لم تكن هذه نيته، كما فكر سيزار بشيء من ازدراء الذات وهو يرى عيني بيانكا تلتهبان بما يشبه الفزع، ثم لا تلبثان أن تنخفضا أمام عنف نظراته.

اليوم والغد مخصصان للمرافقة فقط، حيث يستمتعان معاً بكل ما يفعلانه وبالأحاديث الخفيفة، حتى يعودا إلى التقارب كما كانا من قبل. ما من تقارب جسدي أو حتى ما يقارب ذلك، كما لن يشير أبداً إنه يريد أن يقنعها بأن الزواج ليس عبئاً... وأنه لا يشبه أباها. لكن الأمر لم يكن سهلاً، وقد تبيّن له استحالة ذلك عندما كان يحترق مع كل نفس يأخذه، لكي يخبرها بشعوره نحوها، وما يريده منها.

وقرر متجهماً أن هذا خطأ، فلطالما كانت فلسفته أن يسعى بنفسه وراء ما يريده.

دعا الله ألاّ يكون قد نسف كل شيء بتسرّعه وسعيه إلى تحقيق نتيجة سريعة قبل مرور الوقت الكافي الذي حدده لإنجاح خطته. أراد أن يظهر مبلغ ملاءمة أحدهما للآخر وأن عليهما ألاّ يخسرا ما جمعهما معاً. وجاهد ليبدو مرحاً. ثمة أمر واحد مؤكد، وهو أنه لا يستطيع أن يتراجع. عليه أن يستمر، ولكن بحذر.

وغرز الشوكة في طبق الدجاج ثم وضع لقمة مغرية بين شفتيها، وقال برقّة: «كلي أولاً، وسنتحدث في ما بعد. لا أريد أن يغمى

عليك. أنت لم تتناولي الفطور، هل نسيت؟».

خفضت بصرها وهي تبتلع ريقها متشنجة، فأطبق أسنانه بشدّة. في الساعات الأولى من هذا الصباح كانت تتصرف وكأنها عادت كما كانت في بداية علاقتهما من حيث الانطلاق والحيوية والدفء وخلوّ البال. لكنها عادت الآن إلى حذرها وتحفظها اللذين قابلته بهما منذ عودته إلى الجزيرة.

ألقت عليه من تحت أهدابها الكثيفة نظرة غامضة، ثم فتحت فمها للقمة اللذيذة التي قدمها لها. وتأوّه هو بصمت وحرقة. لن يستسلم لرغبته في أن يضمهاإلى صدره حتى يفقد الواحد منهما إحساسه بما حوله، لن يفعل ذلك!

يجب أن يلعب دوره بمرح إنما بمنطق أيضاً، فيستميل ذكاءها المتألق وليس حواسها فقط.

لفّ أصابع يدها بعناية حول الشوكة ثم جعلها تمسك الصحن بيدها الأخرى، ثم التقط صحن طعامه الذي لم يعد يرغب فيه الآن. نظر إلى الطعام فكرهته معدته وأعاده إلى مكانه.

كانت امرأة بالغة الذكاء وستدرك المنطق القوي في ما كان على وشك أن يقترحه.

هل سيمكنها ذلك؟

تنحنح، وشعر بأنه أشبه بمراهق عديم الخبرة واللباقة فأثارت هذه المشاعر الغريبة قلقه الشديد. وتحوّل سيزار أندريوتي إلى كتلة من المشاعر، وانعقد لسانه فلم يجد الكلمات التي يريد قولها. تردد فهي لن تستمع أبداً!

ـ بيانكا...

ولحسن الحظ، لم يصدر صوته متوتراً مصطنعاً كما كان يخشى:

«أريد أن يكون زواجنا زواجاً حقيقياً عماده الحب».

رفعت رأسها، واتسعت عيناها الجميلتان، وقد زادت لونهما الكهرماني عمقاً صبغة الشمس الخفيفة التي اكتسبتها بشرتها فجعلتهما كجوهرتين. كانت قد عقدت شعرها إلى الخلف بوشاح طويل أصفر ولكن بعض الخصلات أفلتت، لتحيط وجهها كالحرير الأسود. وانفرجت شفتاها الناعمتان فعاد إلى عقله على الفور، ورفع يده ليسكتها مضيفاً بسرعة: «لا تجيبي الآن، ولكن عديني بأن تفكّري في ذلك... وضعي في عقلك أنني لست أباك وأنني قادر على أن أكون زوجاً وفياً».

كان هذا أفضل ما يمكن فالانطباع الذي تركه لديها عندما أجبرها على الزواج منه بدافع الانتقام والرغبة فقط، يلزمه الكثير لكي يمحى، فهو لم يفعل أيّ شيء لاحقاً لكي يمحوه أو يغيّره.

ـ أنا أتعلّم عن نفسي شيئاً جديداً يومياً.

قال ذلك بصوت أجش منخفض، وحاول أن يبتسم فلم ينجح تماماً في ذلك. كانت قد وضعت صحنها على الأرض ثم ثنت ركبتيها إلى صدرها، وطوقتهما بذراعيها... وهذه الجلسة تعني أخذ موقف الدفاع... هذا إذا كان رأى شيئاً مماثلاً من قبل.

لم تكن تنظر إليه بل راحت تنظر إلى البحر، وكأن بإمكانها أن تنكر ما قاله بالتظاهر بأنه غير موجود.

يبدو أنه غير ماهر في عرض الزواج، هذا ما خطر له وهو يضع يده بخفة على كتفها ليلفت انتباهها. وعندما شعر بها تجفل، عاش لحظة من الذعر الخالص. لكنه نبذ الذعر من ذهنه وتمالك نفسه ثم بدأ يشاركها أفكاره: «أنا لست ماهراً في هذه الأمور، أليس كذلك؟ لم أتزوج قط من قبل، ولم أفكر أبداً في ما سأفعله يوماً ما. وعندما

عرضت عليك الزواج أول مرة شعرت أنا نفسي بالصدمة. لم أعلم من أين جاءتني تلك الفكرة، لكنك كنت على صواب في تجاهلي. ثم لا أدري ما أصابني حين حاولت أن أنتقم وأن أجبرك على الزواج... ربما ظننتها رغبة في الانتقام لكنها كانت رغبة في الارتباط بك فعلياً فلا تتجاهليني الآن. أنظري إليّ يا «بي».

مضت لحظة خيّل إليه فيها أنها ستتجاهل ذلك الطلب وتنبذه كلياً. أمسك أنفاسه، ثم عاد فتنهد بارتياح عندما نفضت يده عن كتفها والتفتت إليه، وعيناها الذهبيتان ضيقتان كهرة تستعد للقتال. لقد أثار انتباهها على الأقل.

قال وهو ينظر إلى توهج عينيها: «أنا أعلم أنك لا تهتمين كثيراً بالزواج. أنا أيضاً لم أكن أهتم حتى عدت إلى لندن بعد أن تركتك في الجزيرة. لقد خطر هذا في بالي حينذاك، وأنا أتساءل عن السبب الذي جعلني أجبرك على الزواج بي. كان ذلك تهوراً غريزياً. كنت أريدك معي بصورة دائمة والزواج هو الطريقة الأنسب لذلك».

عضت شفتها بشدة وكأنها تكبح دفق كلمات لاذعة، خطرت لها. لسبب ما، كانت تريد أن تقطع علاقتهما... متبعة السلوك الذي اعتمدته أمها على مرّ السنين، فهل هي عديمة الثقة بالرجال لأنها نشأت على هذه الفكرة، وهي تحمي نفسها بعدم الاهتمام كثيراً؟.

ـ إذا وضعنا الافتتان جانباً فنحن مناسبان لبعضنا البعض.

كان عليه أن يقنعها بأنه يريد أن يشاركها أموراً كثيرة: «أحياناً، تدفعنا رغباتنا إلى الزواج ظناً منا أنّ هذا الزواج سيشبع رغباتنا. ولكن عندما تنطفىء حرارة الإثارة يزول كل شيء لأن لا وجود لشيء آخر، وتبدأ المشاكل وينتهي الزوجان بكراهية بعضهما البعض... ثم يبدأ التفكير في الطلاق».

أتراه يريد التأثير فيها؟ إنه لا يظن ذلك. لم تنطق بأي كلمة كما لم يعكس وجهها أيّ شيء.

قال بقوة: «بيننا أكثر من مجرد جاذبية جسدية وأظن أن ذلك يستحق التشبث به. أنا أعلم أن بإمكاننا جعله ينجح».

حوّلت بيانكا نظراتها بعيداً قبل أن يرى لمعان الدموع في عينيها. كان وعده بالوفاء والإخلاص أكثر بكثير مما يظن، لكنه لم يقل لها إنه يحبها.

ولكن لماذا يقول ذلك في حين أنه لا يحبها ؟ إنه لا يستطيع أن يرغم نفسه على قول تلك الكلمة السحرية الصغيرة. لن يكذب! فسيزار، ليس كذاباً.

تنفست بعمق ثم التفتت إليه تنظر في عينيه. وتوقفت أنفاسها، وقد اشتعل كل عصب في جسدها شوقاً. بدا مخلصاً وصادقاً للغاية وكأنه يريدها حقاً زوجة له. ودار رأسها لفكرة الموافقة على ما يريد.

علمت أنّ عليها أن تبقى هادئة، فلا تدع نفسها تستسلم للإغراء اليائس بأن تخبره بما يحب أن يسمع، وبالتالي تكون نهايتهما تجديد عقد القران في الكنيسة، وليس في مكتب كما حدث عندما تزوجا: «ما الذي تقترحه...؟ إن اعتبار أحدنا مناسباً للآخر ليس سبباً منطقياً لنستمر بهذا الزواج».

ـ وهل العلاقات الإنسانية منطقية دوماً؟ لقد قلت إن زواجنا أمر يستحق التشبث به. وهذا أمر من الأمور التي تعلمتها. أصغي إليّ، يا عزيزتي.

قال هذا آمراً عندما حوّلت اهتمامها إلى الأفق.

قالت وهي تأخذ قبضات من الرمل وتلقي بها بعيداً قدر إمكانها: «منذ انعزلت معك هنا، لم أعد أستطيع فعل أي شيء آخر».

أخذ ينظر إليها، شاعراً باضطراب مشاعرها وكأنها مشاعره الخاصة، وكبح بحزم رغبته في أن يأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه حتى تعده بالعيش معه على أساس زواج متين.

ـ تعلمت شيئاً آخر وهو ألاّ أحتقر نفسي. وقد فعلت هذا، كما تعلمين.

وعندما نظرت إليه غير مصدقة أضاف: «لقد تقززت من نفسي تلك الليلة، أول ليلة لنا في الجزيرة عندما خرجت أنت في الليل فلحقت بك. فعلت ذلك طبعاً لأنك لا تعرفين معالم الجزيرة، والأخطار... أي شيء يمكن أن يحدث. جننت من القلق. وكنت قد قررت من قبل أن أخبرك بموافقتي على إنهاء زواجنا الذي لم يبدأ بعد، فهذا ما كنت تريدينه. لكن أكثر تصرفاتي خزياً وعاراً كان محاولتي أن أرغمك على البقاء معي كزوجة لي حتى أقرر أنا إنهاء هذا الزواج».

كانت قد أحنت كتفيها، وكأن ما يقوله أكثر مما تستطيع سماعه. لكنه قاله لأنه ضروري: «وجدتك ثم انتهينا بذاك الشكل لأننا لم نستطع منع أنفسنا. وأدركت أنّ عليّ أن أرحل وإلاّ وجدت نفسي أرغمك بحقارة على أن تمارسي رغماً عنك دورك كزوجة».

ـ كنت حينذاك قد توقفت عن محاربتك.

اعترفت بيانكا بذلك بصعوبة وهي تتذكر قرارها بأن تبقى معه ما دام يريدها لأنها كانت ترى حبها له يتزايد يومياً. لم تكن تريد أن تحبه لكنها وصلت بحبها إلى مرحلة أصبحت معها مقاومته مستحيلة.

ـ أعرف يا عزيزتي. أعرف.

قال هذا بلطف وقد اعتصر قلبه: «ما حصل تلك الليلة حدثني بذلك. لكنني لم أستطع أن أدع نفسي أستغلك. وهكذا رحلت. وما إن وضعت قدمي في إنكلترا حتى أدركت أنني تركت خلفي شيئاً

هاماً، وهو أنت. أنا لست قاسياً، يا عزيزتي. ذاك الزواج الذي أكرهتك على قبوله كان دافعه رغبة مادية بحته. كنت سأفعل أي شيء، وأنحط إلى أيّ مستوى فقط لأبقيك معي بصفة دائمة».

وأدفأت ابتسامة صوته: «وهكذا سامحت نفسي على سوء تصرفي لأنني فهمت أخيراً دافعي وعدت إليك».

أجابته على الفور وهي تقبض يديها بشدة: «إلى متى سيدوم ذلك الشكل الدائم؟».

كلمات هيلين المحذِّرة كانت ترنّ في أذنيها عالية واضحة. لم تشأ حينذاك أن تستمع إليها، لكنها لم تستطع أن تطردها من ذهنها.

فقال بصعوبة، مصمماً على ألاّ يفشل في هذا الموضوع: «أنا لست أباك يا «بي». إن تجربتك سيئة الحظ فقد نشأت مع أم تحبينها كما يبدو، ورأيتها تنحدر وتتحطم بسبب ما حدث بينها وبين أبيك، يا «بي»...».

ومدّ يده يمسك بيدها حابساً أنفاسه، فيما قلبه يخفق بقوة بين أضلعه، حتى التفت أصابعها أخيراً على أصابعه تعانقها، ثم قال: «الحياة لا تأتي مع ضمان. لكن ثمة أمور تستحق أن يجرب الإنسان حظه فيها. أنا لست نذلاً أنانياً مثل أبيك. حاولي أن تثقي بي».

ارتجف فمها الناعم وهي تواجه حدة المشاعر في عينيه. كان غاية في الوسامة، من جسمه القوي الرشيق، إلى رأسه الشامخ وخطوط فكه الصلب، وقوة أصابعه المتشابكة بأصابعها والتي أرسلت موجات مألوفة من الأحاسيس في كيانها.

كانت تحبه للغاية وتريد أن تثق به. أرادت أن تثق بأنه سيكون وفياً مخلصاً، حتى لو لم يكن يحبها فعلاً. لقد عبرا معاً أطواقاً من نار قبل أن يصل إلى نتيجة هي أنه يريد لهذا الزواج أن يستمر وينجح، وهذا

اعتراف ضخم من رجل قال بصراحة إنه لا يجد سبباً يدفعه إلى التنازل عن حريته وعزوبيته.

ألا يمكنها، بالمقابل، أن تثق به؟

لقد وثقت به ضمناً عندما قال إن بإمكان أمها الاستمرار في تلقي العلاج الذي تحتاجه من البروفسور ڤاكاري رغم انتهاء علاقتهما.

ألا يمكنها أن تثق به في هذا الأمر بالسهولة نفسها؟

إنها حقاً تريد ذلك.

وانهمرت دموعها وهي تزدرد بريقها. وتأوه سيزار شاعراً بقلبه يتمزق، وأخذها بين ذراعيه وضمها إليه وهو يهمس لها بلغته كلمات محبة.

أخذت تصغي إلى نغمة كلماته الإيطالية ورأسها على صدره الصلب، وسمعت ضربات قلبه القوية فذاب قلبها وطوقت عنقه بذراعيها، فيما أناملها تتخلل بشكل محموم شعر رقبته القصير.

تأوه سيزار راضياً وضمها إليه أكثر قائلاً: «لا تبكي يا عزيزتي. لا أستطيع احتمال ذلك».

فقالت وهي تكبح شهقة أخرى: «أنا لا أبكي. أنا... أنا مضطربة فقط».

لم تستطع أن تعلم ما حلّ بها فقد كانت تتصارع مع نفسها. ولكن عندما أحاط وجهها بيديه، وسمّرها بعينيه وفمه غير الباسم، أدركت أنها خسرت المعركة.

- لا تضطربي. فكري فقط في ما قلته لك. هذا كل ما أطلبه منك. هل توافقين على الاستمرار بهذا الزواج على أساس جديد.. لديك أربعة أيام وليالٍ لتصلي إلى قرار.. فإن أردت الاستمرار فهذا ما سيحدث وإن قررت الانفصال فسأذعن لما تطلبين... ولكن تذكّري

أننا أسعد معاً منا متفرقين.

أغمضت عينيها لكي تصد تأثيره المغناطيسي فيها. كل هذا الكلام وهذه الوعود من دون أن ترد كلمة(حب).

لو قال إنه يحبها، فستوافق حالاً لكنه لن يقولها أبداً. فهل الانسجام والصداقة الحميمة، مهما بلغت أهمية الصفتين، ستكونان كافيتين لكي تبقيه معها طوال حياتهما؟

وإذا وقع في المستقبل، في غرام امرأة أخرى ولأول مرة، أو ببساطة، تملكه الملل من علاقة بردت فيها المشاعر المحمومة، فهل سيطلقها؟ عندئذ، لن تعود لحياتها أيّ قيمة.

تماماً كما لم تعد لحياة أمها أيّ قيمة بعد الرجل الوحيد الذي أحبته، فهجرها.

ارتجفت بيانكا وكادت الغصة تخنقها فشعرت بأنامل سيزار تلامس جفنيها المغمضين، وسمعت همسه المغري: «ما هذا الحزن؟ أنا لا أطلب منك الاختيار بين طرق مختلفة لإعدامك!».

سيعتبر أنها تستحق جائزة في الحماقة، والمبالغة في التأثر. ليس لديه فكرة عن مدى حبها له. ارتجفت شفتاها الناعمتان فضمها إليه بنهم قضى على ما تبقّى لديها من عقل، كما تجاوب جسدها المشتاق مع جوعه، ولم يعد هناك شيء أهم من مشاعرهما، من هذا العناق المخيف والأحاسيس التي أثارها.

كان هذا هو الفردوس، وهذا هو الصواب. كانت تنهداتها المبتهجة ترتفع إزاء عينيه الجائعتين، فيما احترق جلدها من لمساته المتلهّفة.

* * *

١١ - فرصة أخيرة

استيقظت بيانكا ببطء ثم تمطّت بكسل بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة حالمة.

كانت نوافذ غرفة النوم مفتوحة على اتساعها، والنسيم يحرك ستائرها. فيما هدير البحر يصلها من بعيد.

أدارت رأسها، وشعرها القاتم منتشر على الوسادة البيضاء، ثم مدّت يدها إلى المكان الخالي حيث كان نائماً.

صدرت عنها ضحكة خافتة. لقد استيقظ سيزار باكراً، لعله لم يستطع أن يحتمل المزيد من عقاب منتصف الليل!

فالسريران الصغيران اللذان ضماهما إلى بعضهما البعض، انفصلا مرتين أثناء الليل، ما جعلهما يقعان في ثغرة بينهما ويعلقان بالملاءات والوسائد.

صدمة استيقاظهما بهذه الطريقة الفظة، وهما يحاولان التخلص من الملاءات التي تخنقهما فيما الوسائد تغطيهما، كانت تستحيل على الفور إلى شيء آخر مختلف كلياً.

ـ سأربطهما إلى بعضهما البعض بسلاسل المرساة.

كان سيزار قد أقسم على ذلك وهو يدفع السريرين إلى جانب بعضهما البعض ثم أضاف: «وإلا سيعصرنا أحدهما أو ننام على الأرض، أو نطلب من جيوفاني أن يحضر لنا سريراً مزدوجاً من الفيلا

على عربته التي يجرها البغل. لقد كبرت كثيراً على مثل هذه الصدمات لجهازي العصبي».

لكنه كان يضحك وكذلك هي عندما وقفت جانباً تحمل بين ذراعيها ملاءات الفراش. وفي تلك اللحظة، أدركت أنها تريد أن يكون هذا الزواج حقيقياً، فما بينهما أجمل بكثير من أن تتخلى عنه. قد تكون هذه فرصة العمر... أو فرصة مخيفة! لكنها ستستغلها لأنها لا تستطيع التفكير في خيار آخر.

بعد ذاك الحوار على الشاطىء، منحها الوقت اللازم للتفكير كما وعدها. وقد تمسكت بهذه المهلة بكلتي يديها، شاعرة بمرح لم تشعر به منذ وقت طويل.

كان الظلام قد حلّ حين رسا بهما المركب «بيلا أليفرا». وكان سيزار قد أحضر مصباحاً يدوياً لينير طريقهما في الجزيرة. وفي البيت الحجري الصغير، وعلى ضوء المصباح الذي يفضلانه هما الاثنين، أنهيا افراغ محتويات الصندوق. قال سيزار حينذاك، وبجد بالغ: «يمكن لجيوفاني أن يأخذ الصندوق الفارغ في الصباح. لا أريد أن يقترب يوغو منك. إنه ماهر في عمله إلى حد لعين، ولكن حين أراه ينظر إليك متأملاً أرغب في أن أخرج أمعاءه ضرباً».

كان في الواقع يعترف بأنه يغار!

إنه يميل إلى التملك، هذا ما خطر لها كما خطرت لها فكرة أخرى غير معقولة، وهي أنه يحبها حقاً. لكنها ما لبثت أن تذكّرت أن سيزار هو أكثر الناس الذين عرفتهم صراحة. فهو لا يخفي مشاعره أو يدّعي ما لا يشعر به. إنه يعبّر عما يشعر به، من دون أن يأبه للنتائج. وهو يعني ما يقول دوماً.

لو كان يحبها لقال ذلك.

والآن، وهي تعود إلى الوسائد، اتخذت قرارها. كانت تعلم أن الحب ينمو مع الأيام، لذا ستكون زوجة صالحة له، وستحرص على ألاّ تخطىء أبداً.

لكن ألم تفعل هيلين ذلك بالضبط؟

حتى أنها تعمدت أن تحمل بها حين أرادت أن تحتفظ بزوجها؟

وقبل أن تثبت هذه التفاصيل الثانوية في ذهنها دخل سيزار فالتفتت إليه بابتسامة عريضة، تمتع نفسها بمرأى روعته.

بدا ذا رجولة خارقة وكان يرتدي بنطلوناً ولا شيء سواه. بادلها ابتسامتها بابتسامة جعلت قلبها يتفتح.

- قهوة.

قال ذلك وهو يضع فنجانها قربها على منضدة السرير، ثم جلس على حافة السرير: «لقد استعملت عقلي، يا عزيزتي. فأنا نابغة! كل ما عليّ أن أفعله هو أن أنزع العجلات الصغيرة من قوائم السريرين فلا يتحركان حينما يشاءان ولكن أولاً سأحضر الفطور. هل يمكنك أن تأكلي شيئاً؟».

- طبعاً، فأنا جائعة جداً.

- أمس كنت شاحبة جداً ولم تأكلي سوى قطعة صغيرة من شريحة الخبز المحمص.

ذكرها بذلك وهو يتفحص وجهها وقد مال برأسه إلى جانب.

- أحقاً؟

حصل ذلك في الأمس حين كانت مشاعرها مضطربة للغاية. والآن هو اليوم وهو مختلف جداً.

- قد تكونين حاملاً. هل فكرت في ذلك؟

أخذت تكافح لتجلس وعيناها مسمرتان على عينيه. كان هذا

ممكناً بطبيعة الحال: «هل لديك مانع؟».

- ما دمت أنت سعيدة بذلك، فسأكون أنا غاية في البهجة.

ورفع يدها إلى شفتيه يقبّل أصابعها: «هذا أمر آخر عرفته حديثاً عن نفسي وهو أنني أريد أسرة. كنت أعتقد في الماضي أنني لا أريد الارتباط... حسناً، أنت تعلمين ذلك، كما كنت أعتقد أن إنجاب أختي كلوديا لتوأم من الذكور حررني من واجبي. لكنني كنت مخطئاً».

- والآن؟

ازداد ضغط أصابعه حتى أصبح مؤلماً وأجاب: «أنا أريد أسرة. فإذا كنت حاملاً بطفلي فسأرعاه وأحبه كثيراً».

قال هذا بحزم وقد انتفض قلبه ببهجة عنيفة. لهجة الانتصار في صوته كانت غلطة عظيمة. وعنّف نفسه بقوة عندما جذبت يديها من يديه ثم تناولت فنجان قهوتها وعيناها تنظران في عينيه بثبات... ورأى عضلة صغيرة تتشنج عند زاوية فمها، فلعن نفسه.

تحرك على سريرها بخفة، ثم قال بسرعة: «أنت عاقلة بما يكفي، يا عزيزتي، لتدركي أنني لست كأبيك، إذا كان هناك طفل. هذا ما عنيته. سنكوّن أسرة وهذا مهم، لكنه لن يمنعك من الاستمرار في عملك. أنت ذكية في ما تقومين به وأنا أعرف كم يعني لك ذلك. سنحضر مربية للطفل. وأنا أعدك بألاّ أبقى لوقت طويل في العمل بقدر ما أفعل الآن. فأنا سأمضي وقتاً مع طفلنا».

لم ترقّ ملامحها وتألقت عيناها الذهبيتان بشكل خطر. أخذ يشتم في داخله بعنف. كل ما يقوله خطأ. كل ما كان يحاول أن يفعله هو أن يطمئنها إلى أن حملاً غير متوقع لا يعني أنها ستخسر شيئاً، وأنه لا يريدها أن تشعر بأنها وقعت في شرك.

حاول بلهفة أن يظهر في صوته نبرة لامبالاة، شيئاً يعيدها إليه:

«أظنني سأكون أباً رائعاً!».

لم يرسم ذلك أيّ ابتسامة على وجهها. كانا يتفقان مازحين، على أنه سيبدو رائعاً في المئزر، وهو يحمل المقلاة بيد والطفل في اليد الأخرى.

- ما زال الوقت مبكراً جداً للحديث عن الحمل، أو إعطاء الأوامر عما هو متوقع مني أن أفعله.

أرغمت نفسها على النطق بهذه الكلمات من بين شفتين شعرت بهما جافتين كالخشب: «وإذا لم يكن لديك مانع، أرجو أن تخرج، فأنا أريد أن أغتسل وأرتدي ملابسي».

رفع سيزار رأسه وتصلبت كتفاه، ثم خرج من الغرفة من دون أن يضيف أيّ كلمة أخرى، بينما حملقت هي في ظهره ورأسه الشامخ بكبرياء، والتمرد في عينيها.

إذن، لم يعجبه أن تطرده. حسناً، يا لسوء حظه!

وضعت فنجان قهوتها الذي برد على المنضدة، ثم هبّت من سريرها.

لم يكن السبب إذن أن ما بينهما أجمل من أن يخسره كما قال...

إنه يشك في أنها تحمل طفله ولم يشأ أن يخسره!

ولكن ألا يرغب كل الرجال الإيطاليين في أطفالٍ! إنهم شغوفون جداً بهم.

وهذا أمر تطلّب من سيزار وقتاً أطول من غيره ليدركه. عندما واجهه احتمال أن تكون حاملاً، سيطرت عليه جيناته الإيطالية الوراثية وغلبته. أما هي فمجرد ملحق ضروري بالطفل!

إنه لا يحبها لكنه سيحب طفلهما بشكل مبالغ فيه. وربما سينفجر زهواً عندما يحمله لأول مرة بين ذراعيه!

ورغم أنّ طفلهما قد لا يكون أكثر من أمنية بالنسبة له، ولا يعلم ما إذا حصل عليه فعلاً، إلا أنه خطط لكل ما يتعلق به. وهو سيعيد تنظيم أعماله ويعيّن من ينوب عنه في معظم المهام ليمضي وقتاً أطول مع طفله، بينما ستكون هي بعيدة عن مركز الاهتمام في تلك الدائرة الصغيرة.

يمكنها أن تذهب إلى عملها، وتبقى بعيدة عن طريقهما حتى يحين الليل، حيث يبذل هو جهده لكي ينجب طفلاً آخر لأنه سيصبح مدمناً على فكرة تأسيس أسرته وسيرغب في قبيلة كاملة من الأولاد كما يصوّر له غروره.

لمحت وجهها المتوهج غضباً في المرآة. فقررت أن تهدىء نفسها. إنها متوترة الأعصاب وتلوي الأمور.

من المؤكد أنّ في أفكارها هذه شيئاً من الحقيقة، ولكن هل يمكنها حقاً أن تصدّق، بعد الإخلاص الذي لمسته في ما قاله أمس، أنّ لا أهمية لها على الإطلاق بالنسبة إليه، ماعدا أنها قد تكون حامل بابنه؟

ستسأله، وتطالبه بالحقيقة، لكن عندما تهدأ بشكل كافٍ وتتصرف بتعقل.

البقاء معه لأنه يقدّر حقاً علاقتهما، هو أمر يمكنها أن تتقبّله على أمل أن يتعلم كيف يحبها ولو بنصف ما تحبه هي.

أما البقاء معه لأنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها السيطرة سيطرة كاملة على طفلهما فهذا سبب ضعيف. سيسيطر على الوضع إذافعلت ما يبدو أنه يتوقعه منها فتتابع العمل في وظيفتها، التي غالباً ما تتطلب منها البقاء خارجاً إلى وقت متأخر من الليل...

وحتى إن لم تكن حاملاً الآن، ألا يسري كل هذا عندما تحمل وتنجب ولداً؟

أنزلت ماء الرشاش عليها تغرق به تأوهاتها واشمئزازها من نفسها. إنها تقوم بذلك مرة أخرى، فتنسب إليه دوافعاً ملتوية. لكن إن لم تسأله بصورة قاطعة، فلا يمكنها أن تعلم حقيقة ما يفكر فيه.

* * *

- أتريدين مزيداً من القهوة؟

سألها سيزار بصوت مؤدب بارد مرسلاً قشعريرة في جسمها.

هزت رأسها شاعرة بالدوار. لقد دمّرت كرامته، وكرهت أن تكون على خصام معه. كانت تقدّر للغاية الدفء والتقارب بينهما.

كان قد حضّر بيضاً مقلياً وعصير برتقال للفطور فأكلا بصمت تام لم يقطعه سوى ملاحظات متكلفة بالغة الرسمية عن الجوّ ونقص المواد التموينية في البيت وضرورة أن يطلب من جيوفاني إحضار ما يلزم من الڤيلا.

أن يمضيا يومهما وهما يحومان حول بعضهما البعض بحذر أمر لن تحتمله. وكانت بيانكا تعلم أنهما إذا لم يتحدثا مع بعضهما البعض حالاً فستنفجر.

وها هو الوقت المناسب لكي تعلم السبب الحقيقي وراء إصراره على بقائهما متزوجين بعدما كان قد غيّر رأيه. جاهدت لتتكلم بلهجة رقيقة، فما من شيء يحملها على المواجهة: «سيزار، هل لي أن أسألك شيئاً؟».

- تفضّلي!

وانتفض قلبه فقد ذاب الثلج الذي واجهته به. كانت ملامحها الجميلة جادة للغاية بدلاً من أن تكون متجمدة بالازدراء. حان الوقت الآن لكي يخلّص نفسه، ويوضح لها أنه كان يفكر فيها فقط، وبما تريده لأنها أهم شيء في حياته.

ابتسم لها بارتياح وتساءل عما إذا كان إمكانها أن ترى الحب في عينيه، وعما إذا سترحّب بذلك أم تهرب منه لأنها لا تريد تحمل مسؤولية مشاعر لا تستطيع أن تبادله إياها: «إسأليني؟».

بلّلت شفتيها بطرف لسانها وهي تنظر إليه مباشرة وبصراحة. أمسك بيدها على المائدة وما إن تلامست أصابعهما حتى تصاعد رنين هاتفه الخلوي فقطب حاجبيه عابساً، ثم التفت بنظراته يبحث عن مصدر الصوت. فقالت: «تركته في خزانة الأطباق».

وسحبت أصابعها من أصابعه برفق: «كان عليك أن تقفله».

قالت هذا ضاحكة للطريقة التي ضرب بها جبهته براحته قبل أن يقف ويعبر الغرفة. الأشخاص الذين يعرفون رقم هاتفه الخلوي الخاص قليلون جداً. والداه وأخته وسكرتيرته الخاصة. من الأفضل أن يكون الأمر هاماً وأكثر من مجرد ثرثرة لكي يبرر هذا الانتهاك لعزلته في مثل هذه اللحظة.

وكان الأمر كذلك. وأصغى عابساً للحظات، ثم قال بضع كلمات متوترة، وأقفل الهاتف لينطق بعدئذ بسيل من الكلمات تكهّنت بيانكا أنها شتائم مختلفة بالإيطالية.

- مشاكل؟

سألته عندما انتهى سيل الشتائم. فأجاب وقد رقّ صوته عندما وقعت نظراته على وجهها:

- مشاكل غير ضرورية! خصوصاً الآن، يا عزيزتي.

وسار إليها وأمسك بيديها ثم أوقفها على قدميها: «لقد قبض على رئيس المحاسبين عندي بالجرم المشهود وهو يختلس المال. وقد حضرت الشرطة. عليّ أن أسافر إلى روما اليوم... الآن».

كانت يداه تحيطان بجانبي رأسها.

رفع وجهها وتابع: «سأغيب عدة أيام، أسبوعاً على الأكثر. أتعديني بأن تنتظريني؟ أن تلغي رحلتك تلك؟ سيوصل يوغو جين سالمة إلى الطائرة. هل ستنتظرينني هنا؟».

ارتجفت. فهل تلغي رحلتها تلك التي ستحملها إلى حيث تستمر في حياتها الطبيعية بينما لم تعرف شيئاً بعد عن أسباب سيزار الحقيقية؟

إلغاء الرحلة سيكون بمثابة قولها (نعم) له. وكأنه يقرأ أفكارها، إذ أجاب عن سؤالها قائلاً بصعوبة: «إذا لم تكوني هنا حين أعود فسأعلم أنك فكرت في زواجنا وقررت الانفصال».

أحاط وجهها بيديه، وبان الذعر في عينيه وهو يحذرها متوتراً: «في تلك الحالة، وإذا ثبت لك أنك حامل فسأطلب حقّ العناية بابننا. لكنني أتوسل إليك أن تنتظريني».

وتنفس بخشونة، ثم عانقها عناقاً متألماً بطيئاً قبل أن يتركها فجأة ثم يصعد إلى الغرفة ليغير ملابسه بسرعة. وبقيت بيانكا تحدق في أثره ورأسها يدور بكل تلك الأسئلة التي لم توجهها إليه.

* * *

١٢ ـ تهديد ووعيد

كان التشاؤم مدمراً بالرغم من أشعة الشمس المتألقة ومياه البحر الهادئة المتلألئة والسكينة الكسول في الجزيرة، إلا أن ذاك الإحساس استمر، ضاغطاً على بيانكا حتى لم تعد تدري ماذا تفعل.

يومان كاملان الآن وهي تطرح على نفسها الأسئلة عينها مرة بعد أخرى من دون أن تصل إلى قرار.

لو أن تلك المكالمة الهاتفية التعيسة تأخرت ربع ساعة لعرفت الآن موقفها بالضبط.

أهي أمجرد جسد ملائم لكل أولئك الأولاد الذين قرر سيزار أنه يريدهم؟ أهي ملائمة لأن تستلم عملاً إضافياً؟ ستتابع مهنتها أما هو فسيستأجر مربية للعناية بالأولاد بينما سيسعى طوال الحياة لإعطاء برهان حي على رجولته النشيطة؟

أم أنه سيقدّرها لذاتها؟

أحياناً كانت تقتنع بالأمر الأول وأحياناً أخرى بالأمر الثاني... أي أنه يقدّرها لذاتها.

لو تسنّى لها الوقت لتسأله، فهل كان ليخبرها الحقيقة؟

طبعاً كان ليخبرها، كما أكّدت لنفسها بحزم. إنه لا يكذب. ورمت بعنف طبق السلطة الذي كانت تحضره، كيفما اتفق، على الطاولة. كان صريحاً إلى درجة مخيفة. ماذا سيحدث إذا ثبت أنها

حامل، وهل هذا يعني أنه سيرفض الطلاق... أم أنه سيطالب بوصاية منفردة؟ وجمدت لهذه الفكرة. ومن دون وعي، وضعت يدها على بطنها. كان عليهما أن ينتظرا لكي يتأكدا. فإذا فاتتها دورتها الشهرية التالية، ستشتري اختبار الحمل.

فكرة ألاّ تكون حاملاً جعلتها تشعر بضعف واهتزاز في عظامها وكادت تخنقها.

كانت في الواقع، تريد طفل سيزار! فهل هذا يعني أنها ستتقبّله بأي شكل آملة أن تجد السعادة في المستقبل؟ هل ستخبره أنه إذا أحضر مربية فستعيدها إلى بيتها على الفور، لأنها، وبالرغم مما قد يريده هو، ترغب في أن تكون أماً بدوام كامل؟ ورغم أنه سيعطي رأيه في تربية الطفل وهذا أمر طبيعي إلا أنها لن تسمح أبداً بأن ينشأ طفلها وقد أفسده الدلال، وأُطلق له العنان بسبب أب شغوف!

وعندما اقتنعت بأنها على وشك أن تفقد عقلها، خرجت إلى الشمس. لقد فاتتها زيارة أمها منذ عودة سيزار، وشعرت بندم بالغ. لهذا، ستسير إلى الفيلا وتدعو نفسها إلى الغداء، فتمضي بعض الوقت مع أمها ثم تخبر جين بأنها لن تعود معها إلى انكلترا.

وحدّثت نفسها بأن عليها واجب نحو سيزار، ونحو نفسها أيضاً، وهو أن تسمع ما لديه لقوله.

كانت طاولة الغداء معدّة على الشرفة كالعادة. ودعاها البروفسور لاحتلال الكرسي الخالي بينما تقدمت ماريا لتعد مكاناً إضافياً.

- يا لها من مفاجأة! أين كنت؟ مضى يومان على سفر سيزار اندربوتي مرة أخرى؟

حيّتها أمها بذلك بصوت بارد كالثلج وقد تدلّى فمها بنكد، وفزعت بيانكا حين أضافت قائلة: «صحيح أنني لا أطالب بدقيقة من

وقتك حين يكون لديك مرافق أكثر أهمية، لكن يمكنك أن تخصصي لي نصف ساعة مادمت وحيدة مهجورة مرة أخرى».

- آسفة.

وابتسمت لأمها معتذرة فيما قال البروفيسور برقّة: «أولادنا يكبرون، يا هيلين. لديهم حياتهم الخاصة وعليهم أن يعيشوها. لكنهم لا يسلكون اتجاهاً ما إلا إذا دفعهم دافع في ذلك الاتجاه».

وناول بيانكا طبقاً مليئاً بعصيدة اللحم والسمك يعلوه مرق الفطر وقال: «لقد فقدت زوجتي منذ سنوات، وأحياناً لا أرى أياً من ابنيّ الإثنين مدة أشهر. حياتهم مشغولة دوماً، لكني أعلم أنني إذا احتجتهما، فسيتركان كل شيء ويأتيان إليّ».

أضافت بيانكا سلطة طازجة إلى طبقها وهي تراقب أمها. كانت تنظر إلى البروفسور بعينين صافيتين، لكن فمها ما زال متوتراً عابساً. لقد اعتمدت أمها عليها في أمور كثيرة على مرّ السنين. وكانت تطالبها بالدعم، عاطفياً وعملياً، ومادياً عندما ابتدأت نقودها تقل مؤخراً.

وكان ذلك يستنفد طاقتها ومواردها، كما اعترفت بيانكا بصمت، وأملت أن يقوم البروفسور بما يشبه المعجزة ويساعد هيلين على أن تصبح امرأة سعيدة تعتمد على نفسها.

ولكن إذا لم يحدث ذلك، فسيكون عليها أن تقف إلى جانبها. إنها تحب أمها إلى حد لا يمكن لها معه أن تهجرها.

غضبها المكبوت من أبيها، الرجل الذي دفع زوجته إلى شفير الهاوية بسلوكه، قاطعه سؤال خالتها العملي: «ألم تحزمي أمتعتك بعد، يا بيانكا؟».

- لا.

وابتلعت بيانكا العصيدة اللذيذة. كان الوقت لا يزال مبكراً لكن

عليها أن تخبرهما.

تأملت الوجوه حول المائدة، وقالت بثبات: «لن أرحل معك على أيّ حال. هذا ما جئت لأخبرك به. لقد تغيرت خططي. سأبقى هنا حتى يعود سيزار من روما على الأقل، وربما بعد ذلك بعدة أيام».

وانتظرت انفجاراً من هيلين.

وجاء هذا الانفجار بسرعة، فقد أسقطت أمها الشوكة في صحنها بقرقعة مسموعة، واكمدّ لونها ثم قالت بصوت مرتفع: «لا يمكنك أن تبقي. لقد قمنا بكافة التدابير ولا يمكنك إلغاؤها بسهولة! أخبرتني أن علاقتكما انتهت، فلماذا تبقين هنا في انتظاره؟ ليس لديّ شيء ضدّه شخصياً، وكيف يمكن ذلك وهو الكريم نحونا جميعاً؟ لكنه سيؤلمك في النهاية إذا سمحت له بذلك. أنظري ماذا يحصل الآن! يبدو أنه يراوغك... فضلاً عن ذلك، وعندما تم الحجز لرحلتك، اتصلت هاتفياً بانستازيا ليتلي وأخبرتها بأنك ستعودين إلى عملك في الأسبوع القادم، وقد أراحها هذا كثيراً، فلا يمكنك أن تخذليها. أتنوين أن تخسري وظيفتك من أجل رجل يحوم حولك؟».

وكان صوتها قد ارتفع بشكل هستيري وأخذت يداها ترتجفان.

انقبض قلب بيانكا. كلما نظرت أمها إلى سيزار اندريوتي رأت خطراً على ابنتها، ورأت تاريخها هي يعيد نفسه. وهذا غير منطقي طبعاً لكنه جزء من مرضها. بما أن بيانكا عاشت معها على الدوام وعايشت هذا المرض منذ طفولتها، فقد علق شيء منه بها.

ارتجفت في داخلها، ومدّت يدها على المائدة لتلمس يد أمها ثم قالت مواسية: «سيزار لن يتعمّد إيلامي، ولا حتى إيلام أي شخص آخر. فهو ليس من ذلك النوع من الرجال».

وكانت مقتنعة في أعماقها بأن هذه هي الحقيقة. صحيح أن

زواجهما الذي لم تطلع أمها عليه غير قائم على الحب، لكنه زواج حقيقي. وحتى إذا كان نتيجة ظنه أنها حامل وهو يريد طفله، فهو لن يحاول أبداً أن يؤلمها. إنه ليس رجلاً قاسياً.

حاول أن يكون قاسياً، لكنه لم يستطع في النهاية، فإحساسه بما هو حق منعه من ذلك.

-صدقيني، ما كنت لأبقى هنا لو علمت أنه يراوغني!

أرادت أن تريح أمها بهذه الكلمات وتخفف من توترها، لكن هيلين قفزت من مكانها فأوقعت كرسيها على الأرض ثم هربت إلى داخل المنزل. وعندما همّت بيانكا بأن تلحق بها، ألقى البروفسور يده على ذراعها وقال: «لا تفعلي... دعيها تذهب. هذا أفضل. أحد الأمور التي على هيلين أن تتعلمها هو أنك لن تكوني دوماً بقربها لتجففي دموعها وتجعلي كل شيء آمناً بالنسبة إليها».

وهزت جين كتفيها السمينتين ثم قالت وهي تتناول حبة فاكهة: «كنت أظنها تتحسن! لأن أكلها تحسّن وزاد وزنها قليلاً ولم تعد تقيم الدنيا ولا تقعدها عندما لا تستطيع الحصول على شراب!».

ابتسم ماركو واستند إلى الخلف: «أختك ليست مدمنة على الكحول. إنها تستعمله عوناً لها. وقد عانت من صباح صعب».

وتحولت نظراته إلى بيانكا: «لقد حضرت أول جلسة استشارية صعبة. فلا تهتمي لنوبة غضبها المفاجئة هذه! إنها تتقدم في الشفاء، وستتقدم أكثر. لكن ذلك يستغرق وقتاً».

وكان هذا معزّياً، كما أخذت بيانكا تواسي نفسها عندما انتهى الغداء. خرجت مع خالتها جين إلى ناحية بركة السباحة المبلّطة بالرخام حيث أجلستها براحة على مقعد تحت مظلة كبيرة خضراء وتركتها تتخلص بالنوم من تأثير أطباق عدة من العصيدة وفطيرة محشوة بشرائح

الموز تعلوها القشدة والعنب.

لكن كم من الوقت يستغرق شفاء أمها بحسب ماركو؟ وهل خبر زواج ابنتها الغالية سيؤثر فيها بشكل بالغ؟ أخذت تتساءل وهي تعود إلى المنزل الحجري في حرارة شمس الظهيرة.

فهي ستبقى معه كما أدركت الآن. ومهما كانت أسبابه، تبقى أسبابها هي صائبة فهي تحبه، والحياة من دونه هي حرمان مؤلم لا تستطيع الآن احتمال التفكير فيها.

وضوح قرارها جعل قلبها يغني.

أخذت كتاباً إلى الظل على ضفة الجدول، ثم شرعت في انتظار عودته الطويل.

* * *

- أنت هنا... الحمد لله!

عبرت جين الباب المفتوح متثاقلة وتوجّهت نحو بيانكا التي كانت تخفق البيض لتحضّر عجة لغدائها.

- عندما لم تمرّي لاحتساء القهوة، أدركت أن عليّ أن أجدك حتى لو اضطررت إلى تفتيش الجزيرة، بأكملها! إنه الحرّ...

ورفرفت جين بيدها السمينة أمام وجهها الأحمر الناضح بالعرق، وأضافت: «ثم، كل هذا الوزن التعيس الذي اكتسبته هنا... الطعام ألذّ من أن يقاوم كما أن ليس لدينا ما نقوم به سوى الجلوس. من حسن حظي أنني راحلة غداً وإلا فسأصبح أسمن من أن أستطيع الحراك، حتى ولو شئت ذلك!».

ابتسمت بيانكا بعطف، وأجلست خالتها على كرسي ثم سارت إلى الثلاجة لتسكب لها كوباً من عصير البرتقال البارد، وهي تقول: «لم

أحضر إلى الفيلا هذا الصباح لأنني لا أعلم ما إذا كان ينبغي عليّ ذلك. كان علي أن اتصل بالبروفسور لأسأله النصيحة. ولكن ليس لدي الرقم».

كانت قد استعملت هاتفها الخلوي لتتصل بانستازيا وتوضح لها أن هيلين كانت مخطئة، فهي لن تتمكن من العودة إلى العمل قريباً.

انتظارها عودة سيزار أهم من وظيفتها ومن كل شيء آخر، إذا كانت صادقة. وأضافت: «ربما سيأتي في ما بعد، وأرجو أن أراه على انفراد. أو...».

ثم التفتت إلى خالتها وفي يدها كأس العصير: «يمكنك أن تسأليه بالنيابة عني عندما تنفردين به لحظة. سأعطيك رقم هاتفي الخلوي. لا أريد أن أقوم بعمل خاطىء فأكدّر هيلين أكثر مما كدّرتها أمس».

- لا يمكنك أن تكدريها أكثر مما فعلت. أعني، شخصياً، لا أدري كم ستفيدها هذه الجلسات الإستشارية. كان عليها أن تذهب إلى عيادة حقيقية، هذا رأيي. أنا لا أوافق على أن تقيمي علاقة سريعة مع ذلك الفتى، وأنا سعيدة بأن أعترف بأنني رجعية بالنسبة إلى هذه الأمور لكنني لا أهتاج غضباً بذلك الشكل».

همّت بيانكا بأن تخبرها بأنها متزوجة من سيزار وأن الغاية من إخفاء الأمر عنها وعن أمها هو عدم التسبب بتكدير أمها التي سترى أن قصتها تتكرر مع ابنتها... كادت تهم بإخبارها ولكنها عادت فعدلت عن رأيها فسيأتي الوقت المناسب لذلك وبدلاً من ذلك سألتها: «وكيف حالها الآن؟».

-هذا ما جئت لأخبرك به. قال ماركو إن بإمكانه أن يعالج الوضع... أظنه اضطر إلى إعطائها مخدّراً الليلة الماضية. قال إن عليك أن تقرري ما تريدينه بنفسك. لكن يحق برأيي لك أن تعرفي».

فانقلبت معدة بيانكا: «أعرف ماذا؟».

واعتصر قلبها عندما رفعت خالتها حاجبيها وقالت بغطرسة: «أمك مصرّة على أنك إذا لم ترحلي غداً معي، فستذهب هي. وهي تعني ذلك. ولا أحد يستطيع منعها.. إلا أنت».

***

١٣ ـ الانتظار

بخطى متوترة من الألم، خطا سيزار على الرصيف الحجري غير المستقيم، محدقاً إلى البحر، منتظراً عودة المركب «بيلا اليغرا». لقد فقد حساب الزمن.

فقد كل شيء.

بيانكا لم تنتظر. ورنّت كلماته فارغة في أذنيه: «إذا لم تكوني هنا عندما أعود، سأعلم أنك فكرت في أمر زواجنا وقررت الانفصال».

المرأة التي تعلّم أن يحبها بعمق والتي جعلته يتخلّى عن قناعته السابقة بأن الحرية هي الشيء الوحيد الذي يريده وقبل أيّ شيء آخر، تلك المرأة خرجت من حياته. وتركته مستعبداً تماماً، وفي معصميه قيود حب غير متبادل.

التوت شفتاه بسخرية وهو يتذكر ما شعر به عندما أطفأ محرك طائرته الهليكوبتر ونزل منها وقد ملأته البهجة!

لقد عاد مبكراً وكله أمل في أن تكون هنا، وأن تكون قد ألغت رحلتها هذا الصباح. زوجته الحبيبة بيانكا الرائعة الجمال ستكون بانتظاره لأن ما بينهما ثمين للغاية. كان يعلم هذا، وبدا واثقاً أنها هي أيضاً أصبحت تعلم ذلك الآن!

وإذا أرادت الانفصال عنه، فعندئذ، يالله!.. سيفعل كل ما بإمكانه لكي يقنعها.

وصل إلى قمة الطريق واذا به وجهاً لوجه مع صديقه القديم. لا بد أن ماركو سمع جلبة وصوله، فهي لا يمكن أن تفوته، وقد جاء لاستقباله.

كان مستعجلاً لرؤية بيانكا، رؤية ابتسامتها الرائعة، لأن يلمسها. ورغب في مواصلة السير والاكتفاء بإيماءة للتحية، لكن التهذيب منعه من ذلك. لكنه سيتوقف لمدة قصيرة فقط، كما حدث نفسه.

ـ ما هي الأحوال؟

إنه سؤال متوقع.

ـ الوضع مستقر الآن.

لم يكن هذا جواباً. لا بد أن خطباً حدث في غيابه. هل الطاهي متردد في القدوم؟ لا بأس، فهذا ليس أمراً صعباً.

هل يوغو يسبب خلافاً بين المتنافسات عليه من المستخدمات؟ مهما كان الأمر، يمكن له أن ينتظر، لكن لقاءه مع بيانكا لا يمكنه ذلك.

ـ هل رحلت جين على ما يرام؟

تذكر أن يسأله عن ذلك كعادته عند رحيل أحد ضيوفه.

ـ نعم. هما الإثنتان، هي وبيانكا.

مضت لحظة ذهول لم يصدق فيها ما سمع. وعندما تلاشت الصدمة حلّ مكانها الألم.

ـ أخذهما يوغو في المركب لكي تدركا طائرة لندن...

ثم تابع الكلام لكن سيزار لم يلتقط سوى كلمات قليلة من حديثه بسبب الضربة العمياء التي أصابت عقله. وراح يكافح للتعود على ما لا يمكن التفكير فيه.

لقد رحلت. لم تنتظره. كانت الرسالة واضحة وهو لا يستطيع

احتمالها.

وكان ماركو يزال يتحدث. كلمات وعبارات لا تهمه... (نوبات انفعالية) و(مزاج متقلب) (وذلك منذ الطفولة، كما أتصور) (شيء مؤسف) (التشخيص جيد لحسن الحظ).

لا يستطيع أن يتذكر الآن كيف تمكّن أخيراً من أن يعتذر ويتخلص منه. كل ماستطاع أن يتذكره هو حضوره إلى هنا لينتظر المركب «بيلا اليغر».

لعلها تركت مع يوغو خبراً له! تملكه هذا الأمل فجأة لكنه ما لبث أن مات بسرعة، فهي ليست بحاجة إلى ذلك. رحيلها هو الخبر، وهي لا تحتاج الى غيره.

شتم بعنف ودس يديه في جيبي بنطلونه بينما الشمس تحرق رأسه، والعرق ينضح من جسده. وبقي واقفاً ينتظر.

ما من خبر له، كان يعرف هذا. لكن بإمكان يوغو أن يعيد الطائرة إلى «باليرمو» ويتركها هناك لأنه، هو سيزار، ليس في حالة تسمح له بالقيادة. لم يعد لديه شيء هنا، وهو لا يريد أن يرى هذا المكان التعيس مرة أخرى.

سيذهب إلى بيته في ضواحي روما وينعزل عن العالم مدة أسبوع بانتظار أن يخدر الألم الذي يحطمه. وبعدئذ، يستمر في حياته بشكل ما، ويحاول أن ينسى ويوافق على الطلاق.

* * *

جلست بيانكا في مقدمة المركب، متمنية لو يسرع بها أكثر. على الأقل أصبحت الجزيرة على مرمى النظر الآن، أشبه بنقطة غائمة في الأفق. كانت متلهفة للعودة إلى هناك حيث تمزق تلك الرسالة وتنتظر سيزار.

حاول يوغو إجراء حديث معها، لكن عدا بعض الإيماءات والإبتسامات الشاردة التي كانت ترد بها عليه، بقيت مساهمتها في الحديث قليلة للغاية.

كانت جين قد قالت لها وهي تنتظر للاطمئنان على أمتعتها: «ربما عملك هو الصواب، وربما لا. كل ما بإمكاني أن أقوله هو إن التزامك بقرارك الأول بالسفر معي جعلها تستقر مرة أخرى. لقد أصرت هذا الصباح على تناول الفطور معي، وكانت متألقة للغاية. ولماذا لا، وقد حصلت على ما تريد؟ أنقذتك من القبضة الشريرة لذلك الإيطالي «الفاسد».

وتقدمت جين إلى الأمام بصعوبة عندما تحرك الصف أمامها، بينما جمدت بيانكا تماماً. ودفع يوغو عربة الأمتعة الى الأمام. دوره في مرافقة المرأتين سبب له بالملل، وقد رأت بيانكا ذلك على وجهه. فإحدى المرأتين تتضايق منه بشكل واضح، والأخرى غير مبالية به وبغزله.

سلخت بيانكا قدميها عن الأرض، ثم لمست كتف خالتها: «أنا عائدة».

ثم استدارت وأخذت تنزل أمتعتها، بينما قالت جين: «وماذا عن هيلين؟».

- ماذا عنها؟ لا تسيئي فهمي. فأمرها يهمني، لكن أمر سيزار يهمني اكثر. وهو ينتظرني على الجزيرة. إنها حياتي أنا يا جين. وأنا غير مستعدة لأن أفسدها لأن أمي مريضة وأعصابها متعبة. لطالما كنت في خدمتها وسأبقى كذلك على الدوام. سأفعل أيّ شيء من أجلها ما عدا إدارة ظهري للرجل الذي أحب.

حتى لو لم يكن يحبها؟

تجاهلت بيانكا تلك الوخزة. هذا لا يهم! إنه يريدها معه، وهذا يكفي لأنها تريد أن تكون معه أكثر مما تريد أي شيء آخر في العالم.

فقالت جين تحذرها: «سيغمى عليها».

- ربما، لكن ماركو سيعتني بها، ولهذه الغاية يدفع له سيزار أجراً، وأنا واثقة تماماً من قدرة البروفسور!

أنزلت آخر قطعة من أمتعتها بينما كانت خالتها تتقدم إلى الأمام.

كانت تشعر بالمرح وخلو البال وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهلها، وما زالت كذلك. وبدأت الجزيرة تأخذ شكلها، حدبة خضراء مستديرة في البحر اللازوردي، بدت أشبه برسم طفل.

تملكتها الإثارة. أول ما ستفعله حين تصل إلى البيت الحجري هو أن تمزق تلك الرسالة. لقد تركتها له على المائدة لكي يراها، وهي تحمل اسمه.

الكلمات التي كتبتها، كما تراها الآن، تعترف بالهزيمة. لقد شرحت له التراجع الكامل لأي تقدم أحرزته هيلين صحياً عندما علمت بأن علاقتهما مستمرة. وكتبت له أيضاً أنها رأت أنّ من الأفضل ألاّ يريا بعضهما بعضاً، لبعض الوقت.

وتنهدت بارتياح. الحمد لله أنها عادت إلى عقلها في الوقت المناسب! ثم حوّلت أفكارها إلى موضوع أسعد وهو كيف ستمضي أيامها القادمة بانتظاره.

بعد أن تمزّق تلك الرسالة، ستغير بذلتها القطنية البيج التي لبستها للسفر، وتلبس سروالاً قصيراً وقميصاً فضفاضين، ثم تعرّض بشرتها لأشعة الشمس، فتقطع بذلك الوقت، فيما أذناها مرهفتان على الدوام لسماع هدير الهيلوكوبتر... ربما...

لكن كل أفكارها تبخرت من رأسها عندما رأت الهيلوكوبتر!

سيزار! قد يكون أي شخص آخر لكنها علمت أنه هو. لقد عاد! وعندما اقترب المركب «بيلا اليغرا»، اختنقت أنفاسها في حلقها، وتسارعت خفقات قلبها. لا بد أنه قرأ الرسالة الآن. ماذا سيكون شعوره؟ هل سيهتم؟ أم أنه فقط سيشعر بالغضب وحسب لأنها ربما، وربما فقط تحمل طفله؟

ولماذا ينتظر على الشاطىء وعيناه تراقبان المركب الذي يقترب من الشاطىء بسرعة؟

لأنه ينوي أن يطلب من يوغو نقله إلى «باليرمو» على الفور، لكي يستقل أول طائرة إلى لندن، فيراقبها ولا يجعلها تغيب عن بصره حتى يتأكد مما إذا كانت حاملاً أم لا...؟

لكنها عادت وفكرت بانفعال في أن هذا غير معقول، وأن الهيلوكوبتر يمكن أن تنقله في أي وقت إلى هناك حيث طائرة شركته الخاصة تقف على استعداد.

وعندما رسا المركب، نبذت من ذهنها هذه التكهنات، ثم رفعت تنورتها الضيقة ونزلت من المركب إلى الرصيف وركضت نحو سيزار.

كان وجهه كالحجر.

لا يهم، بإمكانها أن تغيره! بإمكانها أن تصلح الأمور مرة أخرى! وأدركت أنها على صواب حين ركضت نحوه على الأحجار غير الثابتة فاتحة ذراعيها فرأت الابتسامة العريضة التي حوّلت ملامحه المتصلبة إلى إشراقة منيرة.

- يا عزيزتي!

كانت بين ذراعيه، بين ذراعيّ زوجها. لقد أدركت ذلك لتوّها. وكان عناقه محموماً وشعرت تحت يديها المتعلقتين به، بارتعاش جسده: «أخبروني بأنك عدت إلى انكلترا ولهذا ذهلت حين رأيتك.

ظننت أنني فقدتك! أنت لا تريدين الطلاق».

لم يكن يسألها. مدت يديها تلامس وجنتيه وفكه وفمه العاطفي، وكان هذا جواباً صريحاً منها بأنها تريد لزواجهما أن يعيش.

توهجت عيناه بنصر مفاجىء، وأخذ يعانقها بشغف حيناً ويتأملها حيناً آخر: «كنت أعلم أنك لن تتركيني».

- يا للغرور!

انقبضت يداه حين قرصت ذقنه تعاقبه، وبابتسامة عريضة عاد فجذبها إلى بين ذراعيه، فتعلقت به ورأسها يدور بينما كان يعانقها، جاعلاً العالم حولها يهتز. وبعد حين، أبعدها عنه قليلاً وهو يقول ساخراً: «نسيت أن ثمة متفرجين. عندما أكون معك، أنسى حتى اسمي... أنسى كل شيء».

تأثرت لسماع هذه الكلمات. لكن عليهما أن يتوقفا، فيوغو يراقبهما بابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. وأدركت أنه كان ليهتف ويصفر لهما، لو جرؤ على ذلك.

كما أدركت أيضاً أن خبر عودتها إلى سيزار سيسري في الفيلا سريان النار في الهشيم. فقد سمع يوغو كل كلمة قالتها لخالتها جين. أما أمها هيلين فستنفجر كالقذيفة!

لكن تلك ستكون مشكلة ماركو، كما أخذت تخفف عن نفسها عندما أمسك سيزار بيدها، وطلب من يوغو أن يحضر أمتعتها ويأخذها في طريق الجزيرة.

وضع ذراعه حول خصرها، وقال معترفاً: «لقد جن جنوني حين ظننت أنك رحلت، وأنك قررت الانفصال عني. بينما كنت فقط ترافقين خالتك لتوصليها سالمة إلى الطائرة، أليس كذلك؟».

فوقفت. إذا كانت علاقتهما ستنجح، فعليها أن تكون صادقة معه

تماماً.

- كلا، يا سيزار بل كنت راحلة. عندما أخبرت أمي أنني لن أسافر، وأنني سأنتظر عودتك، فقدت عقلها. كل تقدّم اكتسبته زال وأقسمت على أن تغادر الجزيرة إذا لم أغادرها أنا. فماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لم أستطع أن أدعها تفقد هذه الفرصة لشفاء نفسها وأعصابها إلى الأبد.

فقال برقة: «لكنك عدت».

لا بد أن هذا يعني شيئاً ما مثل أنها تهتم به حقاً. وهل يعني أنها تحبه؟ وأنها فكرت أثناء الطريق في أنها نشأت منذ الولادة على ألاّ تثق برجل بيته غير مرهون، وسيارته لم يشترها مستعملة ولا يعيش على الدين؟

الزمن سيخبره بذلك. فقد كان حريصاً جداً على ألاّ يستعجل الأمور، وهذا وقت المرح. ألم توافق على البقاء معه؟ وفي هذا منتهى البهجة. وعندما ارتقيا التلة، قال متحدياً: «هل نتسابق إلى البيت، وعلى الخاسر أن يغوي الرابح؟».

ومن دون أن يمنحها فرصة لتلتقط أنفاسها، انطلق مسرعاً. وفي منتصف الطريق، نظر إلى الخلف فرآها تسير بخطوات السلحفاة وهي تبتسم. وعندما أسرع عائداً نحوها أشارت إليه بأن يتابع طريقه صارخة بمرح: «إستمر. أنا متشوّقة لأن أفشل فأدفع الجزاء».

لكنه عاد إليها وحملها بين ذراعيه وقال بصوت جعله الضحك وشعور آخر، أعمق أبحّ: «سترتفع الحرارة، كما أننا سنغوي بعضنا بعضاً!».

وكان هذا رائعاً بالنسبة إليها بل أكثر من رائع، كما أخذت تفكر ورأسها يدور عندما تخطى بها عتبة المنزل ثم أنزلها على قدميها.

انحنى ليعانقها بنعومة وبطء رائعين، وما إن استعادت أنفاسها حتى قال من دون أدنى إشارة إلى تسوية ما: «علينا الزواج في الكنيسة... كي يكون زواجنا مباركاً. وغداً سأقابل أمك وأقنعها بأنني لست مثل أبيك، وأنني لن أفعل شيئاً يؤلمك أبداً».

ـ شكراً.

تمتمت بذلك وقد اغرورقت عيناها فجأة بالدموع، غير منتبهة إلى ما كان يفعله حتى امتدت يده إلى الرسالة التي تحمل اسمه والموضوعة بجانب السرير: «هل هي لي؟ لتخبريني بسبب رحيلك؟».

أومأت بيانكا وقد جمد الدم في عروقها.

ـ هل فيها شيء عدا الأسباب التي ذكرتها لي؟

ومزق الرسالة إلى قطع صغيرة وعيناه تلمعان بخبث: «هذا غير مهم، فأنت لي. لقد وعدتني ولا حاجة بي لأي شيء آخر».

وعندما سار إلى سلة القمامة ليلقي الرسالة فيها، سألته: «كنت على وشك أن أطرح عليك سؤالاً قبل تلك المكالمة الهاتفية، هل تتذكر؟».

أرادت أن تطرح عليه هذا السؤال لأن عليها أن تفهم الأمور، لكن مهما كان جوابه، فلن يغيّر شيئاً. فهي مرتبطة بهذا الرجل بحبل غير مرئي ولا يمكن أن ينفصم.

قال بابتسامة عريضة من فوق كتفه: «أتذكر. وأتذكر أن غضبي هاج لتلك المقاطعة. والآن إسأليني حالاً يا حبيبتي».

وعاد إليها فبللت شفتيها بلسانها: «هل طلبت مني البقاء كزوجة لك لأنك تظن أني حامل؟».

وقف حيث كان وقد فوجيء. ثم اتسعت شفتاه بابتسامة عريضة، ومدّ يديه يمسك بيديها يرفعهما إلى شفتيه يقبل ظهر أصابعها: «ثمة

حقيقة أخرى وراء رغبتي في العيش معك فقد أدركت أنني أحبك. حتى أنني لم أفكر في الحمل حتى ذلك الصباح حين بدوت شاحبة ولم تستطيعي أن تأكلي شيئاً. لقد خطر في بالي حينذاك أننا قد ننجب طفلاً. وأعترف بأنني استخدمت تلك الورقة لإقناعك بعدم طلب الطلاق... فالطلاق غير سليم لحياة طفل...».

فتحت بيانكا فمها وقد احمر وجهها، وقالت وهي تشعر بغصة: «قل ذلك مرة أخرى».

ـ أنا أعترف وأعتذر...

فهزت رأسها بعنف: «لا، لا، لا. بل الكلمة الأخرى، أنت قلت إنك... تحبني؟».

أرخى سيزار أهدابه وبدت عليه ما يشبه المذلة: «إنها زلة لسان، يا عزيزتي... كنت فقط أرجو أن تمنحيني سرور تعليمك كيف تحبينني».

ثم رفع رأسه بكبرياء وهو يقول بهدوء: «طبعاً أحبك... وما سبب كل هذ الأمور برأيك؟».

ـ آه، يا سيزار!

وأحاطته بذراعيها ودفنت رأسها في صدره وهي تتمتم بكلام غير مفهوم. أبعدها عنه قليلاً، ورفع ذقنها ومسح الدموع عن وجهها المتوهج.

ـ ماذا تحاولين أن تقولي يا حبيبتي؟

ـ ماذا غير أنه كان عليك أن تخبرني؟

والتفت يداها على عضلات ذراعيه. حاولت أن تهزه بقوة لكنها لم تستطع أن تؤثر فيه.

ـ لماذا تظنني أنهيت علاقتنا؟ لأنني وقعت في غرامك. أردت أن

أهرب قبل أن يصبح حبي لك أقوى. لأنك لم تكن تريد الحب، الالتزام...

ساد الصمت للحظات ثم تنفس بعنف وقال: «إنه كل ما أريده الآن. أن نحب بعضنا البعض ونعيش من أجل بعضنا البعض، على الدوام».

وأزاح شعرها عن جانب وجهها، وأضاف: «أظن أن الوقت حان لدفع العقوبة المتوجبة علينا لإنهاء ذلك السباق في ذلك الجو الحار. ألا تظنين ذلك؟».

لم تستطع إلا أن تومىء برأسها وقد تألقت عيناها وارتجفت أطرافها. عندما وقف ليخرج هاتفه الخلوي من جيب بنطلونه الجينز الخلفي، استطاعت أن تسأله: «ماذا تفعل؟».

أخذ ينقر الأرقام وهو يبتسم لها تلك الابتسامة المدمرة: «أطلب من ماريا أن ترسل لنا شيئاً لنحتفل. لدينا الكثير لنحتفل به فهل نبدأ؟».

صمتت، وقد انحبست أنفاسها ولم تستطع إلا أن تومىء فيما عيناها تومضان لتخبراه بأن الأمور في تحسن.

* * *

الخاتمة

بعد ذلك بأحد عشر شهراً... كانت باقات من النرجس تزين أنحاء الغرفة الواسعة. ومن النافذة المستطيلة كان منظر الريف يمتد إلى ما لا نهاية.

لم تندم بيانكا قط على قرارهما بأن يجعلا بيتهما الأساسي في الريف الإنكليزي. كان ممتازاً وتنهدت بسعادة خالصة عندما تلوّى الجسم الصغير بين ذراعيها. كانت فلاڤيا أليغرا أندريوتي قد بلغت لتوّها شهرها الثاني وقد بدت جميلة إلى حد يكسر القلب، وبريئة في ثوب العمادة. لقد ورثت شعر وعيني أبيها الداكنتين وتميّزت بأهداب طويلة بشكل لا يصدّق وأصغر أصابع قدمين يمكن تصورها.

كانت في قمة سعادتها عندما دخل سيزار وقد بدا رائعاً في بذلته السوداء البالغة الأناقة ووقف خلفها، محيطاً خصرها بذراعيه، ويداه على بطنها: «السيدة هانوند ودّعت لتوّها آخر ضيوفنا».

أصرّ على أن يستخدما مدبرة منزل، وإذا بها تصبح كنزاً. فبصفتها زوجته، لديها ما يكفيها من الواجبات، إذ يكفيها العناية بالطفلة

www.eliromancia.com

وتحقيق رغباته. . كما أخبرها وقد لمعت عيناه الجميلتان. إنها رغبات كثيرة منوّعة.

لامس بشرتها برفق، فالتفتت إليه واستسلمت لعناقه.

ابتسم تلك الإبتسامة الواثقة. ومدّت أصابعها إلى عقد الياقوت الذي أهداها إياه عند مولد ابنتهما قائلاً إن الماس بارد بالنسبة إلى طبيعتها العاطفية بعكس الياقوت الأحمر.

ولم تستطع إلا أن توافقه على ذلك حين شعرت بتجاوبها الفوري معه.

تركها على كره منه، وأخذ ابنتهما من بين ذراعيها وهو يقول: «يمكنك أن تدعي هيلين وماركو للبقاء على العشاء. لكنني أحذرك، يا حب حياتي، لا تشجعيهما على التأخر هنا! فلدي خطط للذهاب إلى النوم مبكراً».

تألقت عيناها. إنها حب حياته، وهو حب حياتها. وضعت أصابعها على شفتيه ونظرت إلى آخر الغرفة حيث جلس ماركو فاكاري وأمها مسترخيين أمام المدفأة.

بدت هيلين مختلفة فقد استعاد جسمها ما يحتاجه من وزن، وبدا شعرها جميلاً الآن بلونه الطبيعي العسلي مع بعض الشعيرات الشائبة فقط، أما زينة وجهها فكانت محتشمة. ولكن الأهم من هذا كله هو أنها وجدت صفاء النفس.

قال سيزار بهدوء: «أشعر بأن هذين الإثنين لديهما خبر لنا. ماركو يبدو أشبه بكلب بذنبين، وهيلين تعبث بماسة كبيرة في إصبعها. يحيّرني أنك لم تلاحظي ذلك».

أمسكت بيانكا بذراعه: «وكيف يمكنني ذلك وعيناي عليك

دوماً؟».

سألته باسمة وهما يسيران معاً نحو الإثنين الآخرين اللذين كانا مأخوذين ببعضهما البعض بحيث لم يرياهما قادمين كما لم يسمعا همس بيانكا الأجش: «إذا أعلنا خطوبتهما، فلا شيء سيفوق سعادتي. وربما يحبان أن يمضيا بعض الوقت وحدهما».

قالت له هذا عندما وضع ذراعه على خصرها، ثم تحوّلت إلى ظهرها: «ثمة مطعم جميل بين منزلنا والقرية الأخرى. . .».

- يا لفتاتي الطيبة!

والتفّت ذراعه حول خصرها، فسرى الغليان بينهما: «أنا واثق من أنهما سيتفهمان الأمر إذا أخبرناهما أن غرفة نومنا متشوّقة إلينا».

لم يكن بالإمكان إصلاحه، ولا مقاومته! إنه حياتها. ابتسمت، وتقدمت إلى الأمام لتقطع على آخر ضيوفهما حديثهما الهامس.

* * *